حامد الشريف
رئيس محكمة سابقاً
ماجستير في القانون
محامي

فن المرافعة

وصناعة المحامي المترافع أمام المحاكم الجنائية

١٩٩٣



الدار البيضاء للطباعة والنشر
ت ٢٨٢٥٠٤٦ ـ القاهرة

حامد الشريف
رئيس محكمة سابقاً
ماجستير في القانون
محامٍ

فن المرافعة

وصناعة المحامى المترافع
أمام المحاكم الجنائية

١٩٩٣

الدار البيضـاء للطبـاعة والنشر
ت ٢٨٢٥٠٤٦ ـ القـاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« رب اشرح لى صـــــدرى ويسر لى أمــرى واحلل

عقـــدة من لســـانى يفقهوا قـــولى .. »

(صدق الله العظيم)

قرآن كريم

الإهداء

الى محامين مصر :

مصابيح العدالة وشموعها

رفقاء أشرف رسالة وانبل مهنة

مهنة الجبابرة ..

أهدى هذا الكتاب

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

خير بداية دائما هى البدء بحمد الله جلت قدرته على سابغ فضله ونعمته وفائض احسانه ورعايته عليه عز وجل اعتمادنا وبه سبحانه وتعالى اعتزازنا • وصلاة وسلاما على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى الأمى المبعوث رحمة للعالمين •

وبعد :

لقد وضع هذا الكتاب للاجابة على سؤال بلغ مبلغا كبيرا من الأهمية وهو : كيف تصبح محاميا مترافعا ؟•

وقد يبدو الأمر يسيرا فى البداية خاصة اذا لاحظنا أن جانبا كبيرا من الأساتذة المحامين قد جبلوا على المرافعة بالفطرة وبالموهبة الطبيعية التى حباها الله لهم • ولكن ينبغى للمحامى من الطراز المترافع أن يقوم بتدريب نفسه بين الحين والحين وانتقاء بعض العبارات الجميلة والتقاط مايبدو له مفيدا فى مرافعاته ويعتمد فى ذلك على مجهوداته الذاتية ، وفضلا عن ذلك فانه يوجد قطاع عريض من المحامين الشبان فى حاجة ماسة الى تعريفهم بالمرافعة أمام المحاكم وأساليب تلك المرافعة وصورها وأشكالها وكيفية المرافعة والالقاء والارتجال وتكوين المرافعة كما أنه تبدو الحاجة — بالنسبة اليهم — ضرورية فى بث الثقة والشجاعة فى نفوسهم عن طريق

محاولاتهم حفظ بعض أساليب المرافعة من مقدمات أو خواتيم والخطة العامة الهيكلية لموضوع المرافعة وهو موضوع القضية التى يتم المرافعة فيها .

ولذلك أثير التساؤل عما اذا كانت المرافعة علم أم فن ؟

فالعلم يتطلب الاعتماد على قواعد أصولية وأسس منهجية حتى يصل الطالب فى النهاية الى مراده اذا قام بدراستها والتدريب عليها بانتظام ومعرفتها تماما .

أما الفن فهو يعتمد فى جانبه الأكبر على المواهب الطبيعية التى يمنحها الله للأفراد بحيث يختلفون فيما بينهم ومنها موهبة الخطابة أو المرافعة أمام المحاكم .

والحقيقة أن المرافعة أمام المحاكم خليط بين هذا وذاك . فهى فن فى المقام الأول وتعتمد على الموهبة الطبيعية ثم هى لا تخلوا أبدا من أن تكون علما يقوم الباحث بتعليم نفسه بنفسه أسلوب المرافعة وحفظ بعض الأقوال للاستشهاد بها فى المحكمة عند بداية انطلاقه .. كل ذلك حتى يقوم المحامى بواجبه كاملا فى المحكمة ويستطيع القيام بدوره الذى يضطلع به . ومن المفيد أن نؤكد على أنه يجب تدريس مادة الخطابة القضائية — المرافعة — فى كليات الحقوق حيث أنها المكان الوحيد الآن فى مصر الذى يجب أن يقوم بتزويد طالب القانون بأسس وأصول المرافعة أمام المحاكم وحتى يتسنى للطالب بعد تخرجه سواء عمل بالنيابة أو المحاماة أن يقوم بواجبه كاملا لاعمال مبدأ شفوية المرافعة موضع التطبيق .

وحتى يحين هذا الزمن فان الطريقة الوحيدة هى تنمية عادة

القراءة التى تكسب الانسان الاحساس بجمال الأسلوب وانتقاء الألفاظ التى تضع الانسان على درجة عالية فى هـذا المضمار لأن السر فى ذلك كما كتب لنكولن أشهر الخطباء الى شاب يتوق ليصبح محاميا ناجحـا يكمن فى الحصـول على الكتب وقراءاتها ودراستها بانتباه لأن العمل هو الشيء الأساسى للنجاح (١) . فاذا اتبع الباحث هذا المنهج فضلا عما يمنحه الله سبحانه وتعالى للبعض من المواهب الطبيعيـة الفـذة القادرة على الانفجار فسوف ينشأ جيل من المحامين من الطراز المترافع من أصحاب مهنـة الجبـابرة الأمر الذى تزدان به كنوز تلك المهنة .

واذا كانت كل الحقـائق تنـادى بجـلال دور المحامى وواجب تمكينه من القيـام بمهمته على أوسع نطاق هذا الالمـام الذى يتوقف عليه هو نفسه وعلى مدى المامه الالمام المطلوب بكافة العلوم الانسانية كلها . فان الحقيقة الكبرى هى أن انشاء المحاكم وتنوع القضـاء يرتد الى أصل واحد ألا وهو حماية وصيانة ورعاية حقوق الدفاع أمام تلك المحاكم. هذا الحق الذى كفله الشارع بقوة القانون والذى له ضماناته وامتيازاته وحصاناته وأوضح صور ذلك الحق هو الحق فى المرافعـة الشفوية وخاصة فى المسائل الجنائية .

ويرتبط ذلك بمبدأ شفوية المرافعة أمام المحاكم .

ولقد كان أملا أن يصدر فى موضوع المرافعة كتاب يجمع بين دفتيه أحكام المرافعة الجنائية وأصولها وأساليبها ، لذلك راودتنى هذه الفكرة منذ أعوام سابقة وبالتالى فان جذور فكرة اصدار هذا الكتاب تعود الى فترة مضت ابان عملى بالنيابة العـامة وكان أشد مايسعدنى أن يقوم الأستاذ المستشار المحـامى العـام بتكليفى بالمرافعـة أمام محـاكم

---

(١) دايل كارينغى — فن الخطابة — كيف تكسب الثقة وتؤثر بالناس ص ١٦٤ منشورات دار الكتب الهلال — بيروت — ط ٢ سنة ١٩٨٦ .

الجنـــايات وأنا مازلت معاونا للنيـــابة ولشد دهشتى الآن أننى كنت أقبل ذلك راضيا تماما بل ومستبشرا •

ولم يكن يخالجنى الشك ولا الخوف على الاطلاق • بل كنت بحمد الله تعالى ، شجاعا فى المرافعة ولم أمنح فى أحيان كثيرة الفرصة الكافية لدراسة القضية الدراسة المستفيضة المتأنية لأن الجميع يعلم أن وكيل النيـــابة المترافع غالبـــا مالا يكون هو وكيـــل النيـــابة المحقق لطول فترة الاجراءات وخاصة أمام محاكم الجنايات •

ومضت هذه الفترة الجميلة من حياتى وأنا مازلت أحلم بانشـــاء كتاب عن المرافعة أمام المحاكم قـــد يفيـــد منه الزملاء المحـــامون أو أعضاء النيابة العامة ثم تبلورت تلك الفكرة فى ذهنى تماما واستجمعت أركانها عنـــدما عملت بالمحاماة ووجدت أن عددا كبيرا من المحامين فى حاجة ماسة الى موضوع هذا الكتاب خاصة بعدما شاهـــدت مرافعات كبار محامين مصر أمام المحاكم • فآليت على نفسى ووجـــدت أن من واجبى أن يصـــدر هـــذا المؤلف لكى يسير محامو العصر على الأسلوب الأمثل فى المرافعة احتذاء بالسلف من جبـــابرة المحامين فى العصـــور السابقـــة •

ومما لا يغيب عن البـــال ان أهميـــة هذا الكتاب لاتنصرف فقط الى حاجة الزملاء الجدد له لخلو المكتبة القانونية من المادة العلمية له• بل انه أيضا يفيـــد الزملاء المتقـــدمين فى القانون بدرجة كبيرة •

ولذلك استلزم هذا الكتاب أن نعرض لأحكام وقواعد المرافعـــة أمام المحاكم فى الفصول الأولى من الكتاب •

ثم عرضـــنا لطائفـــة من مرافعـــات سلف المحـــامين المشهورين فى النهـــاية •

وعلى هذا النحو فقد قمنا بتقسيم الكتاب الى الفصول الآتية :

الفصـل الأول : مفهـوم المرافعـة

الفصـل الثانى : عنـاصر المرافعـة

الفصـل الثالث : أحكـام المرافعـة

الفصـل الرابع : المرافعـات الذهبيـة

على أن يسبق ذلك كله فصـل تمهيـدى عن المحـاماه وصلتها بالمرافعـة .

وبعـد :

فهذه مجرد محاولة متواضعة للغوص فى أعمـاق موضـوع على جانب كبير من الأهمية فضلا عن خطورته .

وأرجو أن أكون قـد وفقت فى معالجة فن المرافعة أمام المحاكم الجنائية . فان كنت أصبت فمن الله وان أخفقت فمن نفسى .

« والله ولى التوفيـق »

حامـد الشريـف

المحـامى

فصـــل تمهيـــدى

المحـاماة مهنـة الجبـابرة

ان المحاماة أشرف مهنة وأنبل رسالة ٠

فالمحامى — عند بعض الناس — هو حامى الضـعفاء والأرامل واليتامى يدافع متبرعا أو مأجورا عن القضايا العادلة ليخلص المظلوم واليائس ويرد الحقوق المغتصـبة لأصحابها ويسمع صـوتهم لممثلى العـدالة ويقوى حجتهم ويدفع عنهم كيـد الكائدين ويكشف سـتر المتآمرين ٠ ولذلك قال عنه المنصفون أنه حامل الشـعلة التى تبـدد غياهب الشك وتنير الطريق الى العدالة والحق ومن ثم فهو الشمعة التى تحترق لكى تضاء مصابيح العدالة ٠

وهو يعتبر عند البعض الآخر مجرد ثرثار أجير ، الكلام صناعته والأكاذيب بضـاعته سيان عنده أن يدافع عن الحق أو الباطل مادمت ستدفع له الأجر ليستعين بعلمـه لكى ينصر باطلك على حق خصـمك ويسعى بعلمـه أيضـا ليفلت المجرم من العقـاب العادل وهو العليم بجـرمه ٠

والحقيقة وسط بين الرأيين فالرسالة شريفة والمهنـة نبيلة وهى ضرورية لايضيرها أن يكون بين أفرادها — مثلمـا يكون بين غالبيـة الفئات — من يسيئون اليها ولا يحقرون الا أنفسهم ٠ ولأن المحاماة بحق أنبل مهنـة وأشرف رسالة فهى قديمة قـدم القضاء وضرورية

---

(١) انظر — كنوز المحاماة — المرجع السابق — ص ٣ ، ١١

كالعــدالة ونبيــلة كالفضــيلة ولذلك فهى تجمع بين النبل والسمو •
واذلك فان الناس تعجب بالمحامى المفعم بالطاقة — مولد الطاقة البشرى
صاحب الابتسامة الساحرة •

ولا شك أن واجب المحامى يقتضيه أن يسمو بنفسه عن كل اغراء
قــد يدفعه الى محاولة الحصــول على كسب أكبر عن طريق اطــالة
أمد النزاع كما أن هذا الواجب يملى عليه أيضا أن يبــذل كل الجهود
الممكنة لاقناع موكله أن يكون معقولا عادلا وهو فوق كل ذلك مطالب
بأن يكون على قدر المستطاع قاضيا وان لم يجلس على منصة القضاء
وبالتالى لا يحق له أن يحمل اللقب المشرف المتعــارف عليه وهو لقب
أستاذ اذا ما اقتصرت معلوماته على اللوائح فقط لأن المحاماة هى مهنة
كل المهن ولذا يجب أن يتزود المحــامى بكافــة العلوم الانسانيــة
والاجتماعية عند ممارسة نشاطه [٢] •

والمحاماة تفتح أبوابها على مصراعيهــا لرجال القضــاء الجالس
والواقف يجيئون اليهــا ومعهم بضاعة غالية من تجارب حصلوا عليها
وقد نبغ منهم الكثيرون ووقفوا على قدم المساواة مع كبار المحامين •

والمحامون هم عماد القضاء وسنده لأن عملهم هو غذاء القضــاء
ولئن كان على القضــــاء مشــقة فى البحث للمقــــارنة والمفــاضلة
والترجيح فان على المحامين مشقة كبرى فى البحث للابداع والتأسيس،
بل ان عناء المحامين أشد فى أحوال كثيرة من عناء القاضى لأن المبــدع
خير من المرجح •

ويجب أن يمهد المحامى لنفسه لهذه الصناعة وهو مقبل عليهــا
بالرضــا المطلق والثقــــة حتى يغــرم بالمحــــاماة اغراما يطعمــه

---

(٢) انظر — أحمد رشدى — المحاماة كما أعرفها — المرجع السابق —
ص ١٤٦ •

حلاوتها وحلاوة الاخلاص فيهـا أما التراخى فانه يمهد العذر ليصبح محامى ضرورة ثم الفرار الى احدى الوظائف الحكومية •

ومهما تكن حال القاضى من علم وخبرة وحال المتقاضين من لهفـة على الفوز وتطلع الى الغلب فالمحامى وحده هو الذى يسوس الدعوى ويتولى توضيحها فهو سـيد الدعوى بلا منازع وهو وحـده فى الأعم الأغلب الذى يرجع اليه المنقلب من نجاح أو خيبة وبيده لا بيد سواه تحيا الدعوى أو تموت •

فلكل دعوى روح خاصة تنشر الحياة على أعضائها •• وحياة الدفاع فى أسلوبه وفى طريقه وفى حسن اختيار الأدلة وحسـن ترتيبهـا وفى تصوير الدعوى والرد على أوجه دفاع الخصم •

والمحامون هم روح العدالة ، فاذا كانوا لا يكتبون الأحكام فهم يعدون لها البحوث والمرافعات فيقدمون للقضاء المادة الأولية لصناعته وكثيرا ما يقتصر عمل القاضى على الأخذ باحدى النظريتين التى تقدم بها الدفاع أو أن يوفق بينهما •

والغذاء الفكرى للمحامين هو التشريع والفقه والنظريات القانونية الحديثـة ولذلك فالمحامى عندما يؤدى عمله يعتبر شمعة تحترق لكى تضىء مصابيح العدالة وتضىء مسالك تلك المهنة الشريفة ، فالمحامون هم رسل العدالة الذين يدافعون فى كل العصور عن الحق فى قاعات المحاكم التى هى حرم العدالة الحامى للحريات •

وقد يتبرم القاضى من اطالة دفاع المحامى ويستحثه على الايجاز والاختصار ونحن لا نيأس أن نجد لمثل هذا القاضى عذرا لأن فرصـة العمل بالمحـاماة لم تتهيـأ له يوما من الأيام وذلك لأنه لم يشـاهد

كيف يجلس المحامى للقاء قصاده وكيف يستمع الى شكواهم وكيف يعرضون عليه ما بينهم وبين خصومهم من المنازعات وكيف يضطر كارها أو طائعا أن يسمع أقاصيصهم •

والمعرفة بكل نواحيها غذاء لازم للمحاماة كما ينبغى أن تكون • ولقد قال بلاتون ان مهنة القانون سيدة غيور تأبى الا أن تشغل وحدها فراش الزوجية دون شريك لها •

والآخرون ذهبو أنها ليست زوجة غيور بل هى باحتياج دائم الى رفيقات ورفقاء آخرين فالقانون هو أول العلوم الاجتماعية ويحتاج المحامى الى دراسة علوم الفلسفة والفقه والتاريخ والعلوم الطبيعية وغيرها وعلى المحامى أن يرفع بين الحين والحين رأسه عن مكتبه لينظر من النافذة الى العالم الواسع اذ أن الانكباب على مادة بعينها خليقا بأن يورث المحامى ضيقا فى الأفق وسطحية فى النظر ولا يخرجه عن ذلك الا تلك المخالطة بين القانون وذخائر العلوم والأدب •

فالمحامى يعكف على القضية الموكل فيها باسطا أمام القاضى ماتثيره من مشاكل قانونية وآراء الفقه بشأنها عارضا لحجج كل طرف وأسانيده ليسهل على القاضى مهمته وينير طريقه وييسر له الوصول الى الحقيقة [٣] •

وكم من قضايا لم تتضح خفاياها الا بعد سماع مرافعة المحامى ، وما أكثر الأمور التى لا يكفى فيها مجرد الاطلاع على ملف

---

(٣) د/رمسيس بهنام — علم النفس القضائى ١٩٧٩ — ص ١١٦ •

القضية لكشف غموضــها فيتبدد هذا الغموض بالقاء المحامى الضــوء على ظروف القضــية وملابستها وكم من قضايا تعثرت أمام القضـــاء لصعوبة ترجيح حق على آخر فأدى نقــاش المحامين وتفنيد كل منهم لرأى الآخر وحجه الى اظهار وجه الحقيقة فيها [٤] .

وأخيرا فالمحامى وهو الرجل الذى يسعى لتحقيق العدالة دائما هو ضحيتها فموكله الذى يخسر القضية لا يسلم أبدا بحق خصمه وينسب الخســارة لتقصــير محاميه وليس لعدالة ما حكم به ، والموكل الذى يكسب قضيته لا يرجع ذلك لجهد محاميه بل ينسب الفضل فى كسبها الى وضوح حقه ونزاهة قاضيه [٥] .

---

(٤) د/أحمد صاوى — شرح قانون المرافعات المدنية والتجارية ١٩٩٠ من ٧٧ حتى ١٤١ .

(٥) حسن الجداوى — كنوز المحاماة — ص ١٢ ، الصــاوى بند ٧٩ حتى ١٤٣ .

الفصل الأول

مفهـوم المرافعـــة

تمهيـــد وتقسيم :

نعرض فى هذا الفصل للمفهوم الواسع لمعنى المرافعة أمام المحاكم الجنائية • وسوف نتنــاول هذا الفصــل فى مطلبين حيث نعــرض فى المطلب الأول لماهية المرافعة أما المطلب الثــانى فسنخصصه لمبــادىء المرافعـــة •

المطلب الأول : ماهيـــة المرافعـــة

ان المرافعة فى ساحة القضاء معركة أو ان شئت الدقة فقل هى مباراة تشرف عليهــا روح رياضـــية عالية يشترط فيها الصدق وعدم أخــذ الخصم غيــلة ، والالتجــاء الى ســلاح شريف لا زائف ولا مسموم ، مباراة أسلحتها الوحيدة المعتمدة قوة البيان وثبات الجنــان وقرع الحجة بالحجة ، والتدليل المنطقى والاستعانة — ولكن بقدر — بتأثير العاطفة واستدرار رحمة الحكم الذى هو القاضى ، أو اســتثارة غضبه واستنهاضه لتحقيق واجبه كمحام للهيئة الاجتماعية يدفع عنهــا عدوان المعتدين ، وكملجأ للمظلوم وسند للمهضوم •

وهــذه المبــاراة التى يتولى ادارتهـــا دائمـــا قاض واحد أو قضـــاة تجرى دائمـــا فى قاعات متشـــابهة الوضــع وبتنسيق يكاد يكون واحدا فالحكم يجلس فى رأس القاعة • وتشرف عليــه الحكمــة الخالدة التى تبلى الدهور وهى لا تبلى وتتغير المبادىء والأنظمة وهى ثابتة التى تقرر أن « العدل أساس الملك » •

فاذا بدأت المبــاراة وجب على كل من المتبارين أن يبذل قصارى جهده ليقنع الحكم بحقه ، وليعقد له لواء النصر ولكن المباراة فى سبيل العدل لايستعمل فيها الا ســلاح الحق والصدق تسمو فيهــا الروح الرياضية الحقــة ، فلا مداورة ولا مواربة ، ولكن كلمة الحق تقــال وان أضرت بقائلها ، وحجة الخصم يسلم له بهــا وان خسرت المعركة بسببها •

فالخاسر فى هذه المباراة والكاسب سواء ، كل منهما سعى لنصرة الحق وبها فاز • والمرافعــة هى عملية ذهنيــة سريعة أى عملية عقلية محضة ولذلك يسهر المحــامى الليــالى الطوال يسأل أوراق التحقيق أسرارها ، ويستلهمها خباياها ، ويستنبط الحجج التى أعدها لصــالح موكله ، ويعــد لليوم الموعود ما استطاع من عــدة وبيــان ، ما بين شهود ينفى بهم الاتهــام ، وأسئلة محرجة يقضى بهــا على شــهود الاثبــات ، ومستندات قاطعــة فى الدعوى قاصمة لأدلة الاتهام فاذا ماجاء يوم الفصل بحث عن لسانه فوجده يتعثر فى جوانب فيه لايدرى مايقول وبحث عن الحجج التى أعدها فاذا بهــا قد تبخرت وخلا منها بيــانه ونظر الى المستندات التى ظنها دامغة فاذا بهــا قــد تحولت قصاصات لا قيمة لهــا فى الدعوى ان لم تتحول مستندات عليه لا له•

وتعتمد هذه المباراة على رصيد كبير لا يقدر بالنقود أو الذهب ولكنه رصيد الكلمات ، فالكلمات فى ترتيبها الطبيعى هى مادة القــانون الخام وهى تمتــاز بسحرها الخاص حيث أن لها صــوتا كما أن لها لونا ومعنى ومن ثم فان اختيارها فى تركيب سليم يزيدها سحرا وقوة فعندما نضم بعض الكلمات الى بعضها البعض نجد أن الحياة قد دبت فى أوصــالها بطريقة لاندريها وكأننا أمام شعر أو أمام أغنية • وليس مجرد جملة بل أمام الهام متدفق وسرور لاينتهى [1] •

---

(١) كنوز المحاماة — يوجين جيرهارت — ص ٣ ، سنة ١٩٦٧ ، مكتبة النهضة العربية القاهرة ، ترجمة حسن الجداوى : محمد عمر ، تقديم حسن جلال العمروسى .

ومن هنا تأتى أهمية المرافعة بالنسبة للمحامى شـفوية كانت أم كتابية فهى سـلاحه الأكبر التى تظهر مواهبـه وتنشر جهوده • فهى للمحامى كالمشرط للجراح وكالقلم للكاتب وكالفرجار للمهندس وبالتالى فان جمال الأسلوب وعمق الفكرة وتأثير البـلاغة من صـفات المحامى النـاجح • ولقـد بلغ بكبار المحـامين الذروة فى سلاسة التعبير وقوة الأسلوب وجزالته ، ومن ثم لا تغيب عنهم عبارة ولا يتعثر لهم اسان لأنهم اتصفوا بحلاوة وطلاقة اللسان وسحر البيان والبلاغة لتأكدهم من أن الوقوف للمرافعة لايقل شرفا بحـال من الأحوال عن الجلوس للقضـاء •

فالمرافعة فى المحكمة ليست معركة بقـدر ماهى مباراة شريفـة أسلحتها الوحيدة تعتمد على قوة البيـان وثبات الجنان وقوة الحجة والتدليل المنطقى •

ويجب التنويه الى أن السلاح البتار للمرافعـة هو الاخلاص فى عرض الوقائع ومناقشة الأدلة وليس مجرد اخفـاء نقطة الضـعف فى القضية التى تحتمل جانبين أحدهما مظلم والآخر مضىء حتى ولو تغلب الجانب المظلم على الآخر •

ومن هنا فان الكلام الغامض عن وقائع غير واضحة يجعلهـا غير مفهومة لكن الحديث الواضح عن حقائق غامضة يضفى عليها بصيصا من النور وكثيرا من الضوء الساطع •

ومن هنا نلاحظ أنه قد يترافع أحد المحامين ساعتين ويكون مقلا كما قـد يترافع غيره خمس دقائق ويصـبح مملا ولا يكون ذلك الا بالتركيز على الجانب المظلم من القضية أكثر من الجانب المضىء •

ويجب ملاحظة أن سحر الصوت السريع المجاجل وموسيقى ذلك الصوت تؤثر فى السامعين • وهذه احدى سمات المحامى المترافع الذى

يتميز بمقدرة أصيلة على الفصـاحة وطلاقة اللسان الأمر الذى يؤكد أن لكل قاض محام بمعنى أنه يجب النظر الى حالة القـاضى وظروف الجلسة واليوم وغيره • فالمحـامى الذكى هو الذى يعبر الى أعمـاق قاضيه بنظرة واحدة ومن ثم يختار الأسلوب الملائم للمرافعة باعتبـار أن لكل قضية مقال بمعنى أن الصـوت العـالى والثورة الجارفة من المحـامى مؤشر على أن المتهم مظلوم فعلا ولكن اذا كانت الأدلة قوية فيحسن الالتزام بالهدوء والاتزان الكامل لاستعمال عوامل الرأفـة فى القضـية • وذلك مع الالتزام بأساليب المرافعة التى سوف نتناولهـا فيما بعد وان كنا نرى أن الأسلوب الأمثل للمرافعات أمام المحاكم هو حفظ بعض المقدمات والخواتيم مع معالجة الموضوع من زاويتى الواقع والقانون وذلك باللغة المختلطة بين الفصحى والعامية •

فالمرافعـة ليست هى الفصاحة وحدها ولا هى العلم بالقـانون وحده ولكنها قبل أن تكون غزارة علم وزخرف كلام هى سياسـة يقظة واستبصار حـول الدعوى وحـذقا فى الأداء ولبـاقة فى ايراد الأمر واصدارة بالنسبة للدليل •

ويجب أن يكون الكلام ثوبا للمعـانى المقصودة لا قصيرا ينكرها وتنكره ولا طويلا يتعثر بها وتتعثر فيه فقد تكون للحق المطلوب حياة فى نفسـه ولكن لا يلبث أن يموت لأن قصـور الابانة عنـه تركه مختنقا تحت ترابه أو لأن الخروج عن القـدر اللازم للابانة عنه الى الاطنـاب فى غير مقتض أو الى التعلق بالحواشى البعيـدة عن صلب الموضوع أرسل من الملاله والسأم مايضيق به صدر القـاضى فلا تجد الحقيقـة مسلكا الى قلبـه لأن القاضى على كل حال بشر تعنيه الحجة الظـاهرة فى العبارة الموجزة عن التطويل باعادة ما قيل أو بما لايقوم به الدليل (٢) •

---

(٢) أحمد رشدى — المحاماة كما أعرفها — ص ١٥٣ — الكتاب الذهبى للمحاكم الاهلية ط ٢ ، ١٩٩٠ •

وان متطلبات النجاح فى فن المرافعة هى الفضيلة وروح المبادرة والعزم والشجاعة • فاذا أردت أن تكون محاميـا مترافعـا واثقا من نفسك فانك ستصـبح كذلك لكن يجب أن ترغب فى ذلك وتسـير على الطريق الصحيح بعدم اليأس •

وانها لرسالة شريفة مقدسة — رسالة الدفاع — أن تقف بجانب رجل برىء هجره ذووه وتنكر له أصـدقاءه وانصبت عليه لعنة الناس من جميع النواحى لتـدافع عنه كما يقف القسيس الى جوار المـذنب المحكوم عليه بالاعدام ويسـير بجواره وسـط صخب الصاخبين حتى قاعـدة المشنقة ثم يبعث به واقفـا للقـاء ربه ••• وأنا من جانبى أقف بجوار هـذا البرىء وأرفع صوتى وسط الاتهامات والجلبة لأبعث بهذا الرجل نقيا مطهرا أمام الناس •

فلا يمكن أن أدر ظهرى لأى متهم — أبـدا — مهما تكن تهمتـه وكلما كان صراخ المعترضين عاليا كانت حاجة المتهم لمحام أشد وأقوى وحين يدير جميع النـاس ظهورهم للمتهم يحتم القـانون أن يعين له محام يترافع عنه ويكون له ليس مجرد محام بل صديق •

ومن الشروط الهامة فى المرافعة :

١ — وحـدة الموضـوع •

٢ — ترتيب الكلام وترتيب الأفكار بحيث يبـدأ أولا بالفـكرة البسيطة ثم يتدرج حتى يصل الى قمة ما يريده • وفى القمـة يبـدو انفعاله وقوة صوته وقوة عباراته جميعا •

٣ — اذا انتقـل المترافع من الفكرة الأساسـية الى الأدلة التى يريد الاسـتناد اليهـا يجب أن تكون أدلته واضحة قريبة متصلة بما عرضه فى موضوعه •

---

(٣) كنوز المحاماة — المرجع السابق — ص ٥٣ •

وعلى أى حال فان عرض الموضوع لابد له من نوعين من الأدلة أدلة تؤيده وأدلة تدفع مايعارضه أو ماعسى أن يعارضه ولا شك أن المرافعة أمام المحاكم لها أساس واضح من القانون حيث تستند الى مبدأ شفوية اجراءات المحاكمة الجنائية باعتبارها من المبادىء العامة للمحاكمة اعمالا للمواد ٢٦٨ — ٢٩٤ اجراءات جنائية .

ولكن الخطأ المميت الذى يقترفه الكثيرون يكمن فى اهمال تحضير المرافعة فكيف يأمل ذلك المحامى حتى فى قهر الخوف والتوتر العصبى حين يخوض المعركة بعدة فاسدة أو بدون أية عدة على الاطلاق .

فالمحامى فى مرافعته صاحب رسالة حقيقية يسعى الى ابلاغها عن طريق أسلوبه وصوته ونبرته ولن يستعين فى ذلك الا بالمواد الخام من الكلمات التى استخرجها من منجمه الخاص .

ويجب ألا يجعل المحامى من حديثه مجرد موعظة مجردة للمحكمة لأن ذلك سيكون مملا .. اذ يجب جعل الحديث مثل كعكة مزينة بالأمثلة والعبارات الرنانة .

والمرافعة الجيدة هى تلك التى تتسلح بمادة احتياطية وافرة فائضة أكثر بكثير مما يستخدمه المدافع والا كمن بدأ من دون أن يعرف ما الذى سيقوله وانتهى دون أن يعرف بما نطق .

ولذلك فان بناء المرافعة هام جدا حتى يحقق المحامى رسالته وحتى يكون المحامى سيد موضوعه بالعمل الشاق والتخطيط الصائب والعمل التحضيرى الدائب حتى يصبح محاميا ماهرا وحتى لا تكون كلماته مثل المطرقة .

والنصيحة الأساسية هى ألا يبحث المحامى عن الكلمات ولكن يجب عليه أن يبحث فقط عن الحقيقة والفكرة فعندئذ تتدفق الكلمات من دون أن يسعى اليها .

والمحامى الناجح هو الذى يلم بقوانين التـــذكر الطبيعيـــة وهى الانطباع والتكرار وترابط الأفكار .. أو مايسمى بجهـــاز التذكرة أو فكرة تصـــوير الوقائع بفكرة الصـــور أو قانون التـــذكر الطبيعى وهو لا يؤخـــر تحضـــير خطـــابه للمحكمـــة الى ما قبـــل القـــائه بليلة واحـــدة فان فعل ذلك ســـتقوم الذاكرة بسبب الضرورة بالعمل بنصف قدرتهـــا الممكنة لذا يجب التفكير وتحضـــير القضـــية قبل يوم المرافعـــة بمدة كافية وان كانت مهارة قمة المحـــامين تمكنهم من قراءة أوراق القضـــية ثم المرافعـــة بعدها بفترة قصيرة جدا بعد الجلســـة ولكن يلاحظ أنهم يتعرضون للجوانب القانونية التى من المفروض أنها مدروسة ومحفوظة عن ظهر قاب وتختلف بالتالى من محـــام الى آخر ولا تعتمد الا على ترابط الأفكار لأن الذهن بشـــكل رئيسى هـــو آلـــة ترابط الأفكار .

كما يجب على المحامى احترام المنصة .. فليس احترام المنصـــة عيبا ينسب الى المحامى بل ان جلال المنصة من جلال المحاماه .

ويجب أن يتسلح المحـــامى أولا وأخيرا بالوقار فالمحـــامى الذى يفقد وقاره يفقد موكله ويفقد قضيته ويفقد نفسه .

وهـــذا الوقار يكسبه سحر ورفعـــة فان سبب ضـــياع احترام المحامى وانفضاض موكليه عنه هو فقده الوقار .

ولم تعد وظيفـــة المحامى تقتصر على الدفاع عن الحقوق فى وجه نفوس القضـــاء بل امتـــدت لتغطى المعـــاونة الفنية المتخصصة خارج قاعات المحكمة التى هى حرم العدالة المحامى للحريات .

والمحـــاماه ان أعطيت فهى لا تعطى الا لمن عشـــقها وســـار فى

دروبها وتمكن من الوصول الى فنها وأسرارها (٣) .

ولمعرفة قيمة المحامى أنظر الى القاعدة الأساسية عن الفرنسيين التى تقول ان الخالق سبحانه وتعالى يأمر من السماء ولعباده أن يطيعوه . أما المحامى — دون مقارنة — فهو الذى يأمر موكله فى الأرض الذى عليه أن يستجيب لما رآه محاميه (٤) .

المطلب الثـــانى

مبـــادىء المرافعــــة (٥)

تمهيـــــــد :

سوف نعرض فى هذا الفصل للمبادىء الأساسية فى المراقبة أمام المحاكم الجنائية على أن نتناول البلاغة فى المرافعة والعاطفـــة فى لغـــة المرافعـــات ثم الالتماس فى المرافعة ثم الجرأة فى المرافعة والاعتدال أيضا فيها على التوالى وذلك على النحو التالى :

أولا — البلاغة فى المرافعـــة :

ان البـــلاغة اجتماع اله البـــلاغة ، ذلك أن يكون المترافع رابط الجأش ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم القاضى بكلام السوقه .

---

(٣) انظر الأستاذ/أحمد شنن — عظمة المحاماة — ص ٨١ .

(٤) انظر الأستاذ/أحمد شنن — المرجع السابق — ص ٩ .

(٥) عن مقال لغة الاحكام والمرافعات — زكى عريبى المحامى — الكتاب الذهبى بتصرف — ص ١٦٣ .

وذكر رسول الله ﷺ شعيبا النبى عليه السلام فقال « كان شعيب خطيب الأنبيـــاء » •

والبلاغة هى ايصال القلب الى القلب أما الفصاحة فهى احتيـــال اللسان على الأذن من طريق المعرفـــة اللفظيـــة التى ليست مجرد ظل للمعرفة غير اللفظية •

١ — « ضرورة البلاغة فى اظهار الحق »

اتفق الناس من قديم على أن البلاغة صفة لازمه لمن جعل الدفاع عن حقق النـــاس مهنته ، وتواضعوا على وجوب أن يكون المحـــامى فصيح اللسان بالغ الأثر بكلامه متلاعبا بالعقول والقلوب ، وما يزال الاجماع على لزوم توافر هذه الصفات واقعا •

فالمحامى يبغى الى الصـــنعة والى التفنن فى أســـاليب الخطاب أحد أمرين : اما أن المترافع يرمى الى قلب الحقـــائق فـــلابد له من زخرف القول يموه به ويغرر ، واما أن الحق المجرد بغيتـــه ومطلبه ، والحق المجرد ميسور بمجرد الطلب •

سل طـــلاب الحق فى كل زمان ومكان ينبئوك عن الكلام ونوره الساطع وشمسه المتألقة وسلطانه القاهر خيال فى خيال • حدثهم عن كنهه يخبروك بأنه جوهر نادر ثمين مستقر فى أعمق الأعماق ، خفى على البـــاحث ، عصى على المستخرج ، وأن وجوده — اذا هو اكتشف — وجود نسبى يقتصر فى الغالب على المكتشف • فاذا ما أراد هـــذا أن يثبت اكتشافه للغير وجب أن يعد نفسه لحرب عوان ليس له من سلاح فيها غير بيان حسن ومنطق واضح وبلاغة غالبة •

على أنه من ذا الذى يستطيع التحدث عن الحقيقة المجردة المطلقة؟ أين الحق الذى لا يمازجه باطل وأين الباطل الذى لا يمازجـــه حق ؟

النسبية قانون متميز فى كل شىء فى الوجود ، وليس أسهل من تبين حكمه فى عالم الحقوق .

فى كل دعوى اذن مزاج من الحق هو أشبه شىء بالذهب يخالطه عناصر كثيرة متنوعة على المترافع أن يطهره منها فيخرج بالمعدن النفيس متألقا وهاجا، وأنى له ذلك الا أن يؤدى رسالته على الوجه الأكمل فيجلو ما غمض ويبسط ماتعقد ويسهل ما استعصى . والأمر بعد ذلك ورغم ذلك ، لا القضاء وحده ، بل للقضاء والقدر فرب حجة سائغة قاطعة يحويها كلام سقيم فتضيع قوتها وتخمد جذوتها ، فاذا ناصرها البيان وقدمها فصيح اللسان انقلبت سحرا حلالا ولذلك فان البلاغة هى اذن ألزم اللزوميات للترافع .

٢ — « مجال اللغة العامية فى المرافعات »

صحيح أن لغة الارتجال ماتزال تختلف اليوم عن لغة التحرير ، فالأولى تسمع والثانية تقرأ .

أينا لم يسمع عن الهلباوى فى أحد مواقفه الرائعة، انه يتكلم بالفصحى فيزرى بفقهاء اللغة ولكن الرجل محام بطبعه وسليقته ، فهو يعرف أن العربية الصحيحة ما تزال الى اليوم لغة صنعة ، وانها ما تزال تجهد المخاطب والمخاطب معا . والاجهاد اذا طال انتهى الى ملل وسأم ، لهذا تراه وقد فرغ من التحليق فى سماء البيان وانتهى من قرع الأسماع ، فى نقطة معينة ، بخطاب فخم داوى الألفاظ ، رنان العبارة — تراه بعد هذا وقد هبط من جوه الأعلى الى سهل موطأ من كلام يروى به لطيفة من لطائفه

الثائغة ، أو يصوغ فيه ملحه من ملحه العذبة البارعة ، أو يبرى منه سهما من السخر الفتاك ينفذ به الى مقاتل الخصم •

ولذلك سوف تبقى العامية الى جانب العربية الفصحى لغة مرافعة اضافية تصاغ منها النكتة البارعة يخف بها الصخر ويطوى بمعونتها ملل الجلسات الطويلة القاحلة • وليس فى بقائها ضرر فهى لن تطغى على الحلول محلها فى موضع الجد وعند المناقشة الحامية تدور حول مسائل علمية أو موضوع خطير •

٣ — « مطابقة لغة المرافعة لمقتضى الحال »

« لقد بلغ من اغراق العائلة القضائية ابان بعض العهود فى التأدب أن أصبحت المرافعات والأحكام عبارة عن اقتباسات مكدسة من كتب اليونان والرومان تلوح بينهما الألفاظ الفرنسية وتختفى ولكن يلاحظ أنه قد بقى الاتصال وثيقا بين الأدب والقانون • وذلك لأن الكثير من أشهر أدبائها شغلوا كراسى القضاء أو لبسوا رداء المحاماة •

٤ — « لغة المرافعات لغة حديث لا لغة كتابة »

ان لغة المرافعات قبل كل شىء لغة حديث لا لغة كتابة • تلك هى لغة المرافعات حيث أن المحدث مضطر بحكم طبيعة الموقف الى الابتكار السريع والكلام المرتجل ومواصلة الحديث فى غير توقف ولا تردد ولذلك فان أو أول صفاتها من غير شك بساطة التعبير •

(ثانيا) « العاطفة فى لغة المرافعات »

وليس أجمل فى لغة المرافعات ، بل ليس ألزم ، من غلبة العاطفة فيها حيث أن كلام المحامى يبقى مجرد كلام لا طائل تحته حتى تغشاه عاطفة صادقة فتصبح له قوة السحر •

« وقديما قالوا ان القول ينفذ الى القلب اذا صــدر من القلب »
ولذلك يقف محاميان يطلبــان الرأفة لمتهم فيفوه أحدهما بكلام لايعدو السمع ويقول الآخر قولا يهز القلوب هزا • كلاهما يترافع ، وكلاهما يستعمل كلمة الرأفة والشفقة • فكيف يتفــاوت أثر مرافعتهمــا هذا التفـــاوت ؟•

فتش وابحث وسل علمــاء النفس ينبئوك بأن واحدا من الاثنين حساس يستشعر ما يقول ويتأثر منه عدوى التأثر الى الغير ، والتأثر ، لكى يكون له الأثر يجب أن يكون صادقا ، وهو لا يكون صادقا الا أن يصــدر عن يقين واقتنـــاع • وأن تعجبت لشىء فاعجب لهذا الاقتناع يبدو لك صــادقا ــ وهو صادق بالفعل ــ فى قضــايا يكاد يستحيل على العقل أن يصدق أن كلام المحــامى فيها وليد الاقتناع • ومثــال ذلك أنه فى احدى القضايا ولم يكن فى القضية منفذ لابرة ، لا من حيث أدلتها ولا من حيث أدبياتها ، أخذ « مرقس » القضية عنوة من ناحيتها الأدبية متوسلا بما لاحظه من أن التحقيق فيها كان سريا ، وأن المحامين قد منعوا منحضوره • وانظر اليه كيف يبدأ هذا الدفاع المجيد وقال ان فى مصر محامين :

نحن المحامين نعــالج آلام الناس ونرافقهم فى شفائهم ولهــذا نرتدى الثوب الأسود ونقف فى هذا المكان المنخفض • فاذا ما أعيانا التعب جلسنا على هذا الخشب الصلب فيزيدنا نصبا • فنحن حقيقــة بؤساء ، رفقــاء البؤساء • ولكن رغم هذه المظاهر الخداعة فان الذى فى قلبــه ايمان بالحق يرتفع من هذا المركز المتواضع الى السمو الذى لا حد له • ذلك لأن عمــاده كله حق ، ولأن مأمورية المحامى تمثل حق الدفاع المقدس •

لكن ماذا جرى فى هذه الدعوى ؟

« جرى أن المتهمين جميعا قذف بهم ياحضرة القاضى الى هــوة من النــار » .

ومن الأمثــلة أيضــا أنه قــد قضى « لاشــو » يترافع ثــلاثة أيام وهو كمن يضرب فى حديد بارد حتى أسعفه الحظ ، وقــد أخــذ اليأس منه كل مأخذ ، بسقطة لسان من النــائب العــام اذ وصفه فى رده على مرافعته « بالمدافع عن المزورين وقطاع الطريق » .

وهنا وثب « لاشو » وثبة الأسد وقــد وخز بالسكين ، وعاودته قوته الهــائلة بفعل الكرامة المجروحة ، وانطلق بيــانه الســاحر من عقــاله فأتى بمــا لا يسبقه اليه متكلم ، واستطاع بعد دفاع مرتجل ملتهب أن ينقذ رأس موكله .

(ثالثا) « الالتمــاس فى المرافعــة »

* ويجب ألا يعزب عن الذهن أن المترافع ملتمس ، فلغته يجب أن تكون لغــة يحوطها الاحترام الكلى للهيئــة التى يترافع أمامها . قــد يكون أغزر من سامعيه علما ، وأظهر فضلا ، وقــد يكون كلامه لهم تعليما ، ولكن عبارته يجب أن تكون عبارة اكبار واعظام .

* والاحترام والاكبار لا يقتضى التذلل ولا الضعة فى توجيــه الخطاب . وشد ما يكره عبارة « سيدى البك » يوجهها بعض الزملاء الى قاض ليس بحاجة الى رتبة تخلع عليه على سبيل التأدب الزائد ، وقد يحمل خلعها على أنه زلفى وتقرب .

(رابعا) « المرافعــات لغــة جرأة »

* أنظر الى « ديسيز » وقد دعاه لويس السادس عشر :

أيهــا المواطنون :

أخاطبكم بلسان الرجل الحر . انى أبحث بينكم عن قضاة فــلا أجد غير متهمين ، أتريدون أن تجعلوا من أنفسكم قضــاة « لويس » وأنتم خصــومه .

أتريدون أن تجلسوا للحكم فى قضــية لويس ولكم فيهــا رأى يجوب أوروبا من أقصاها الى أقصاها .

أيكون لويس الفرنسوى الوحيد الذى لا يحميه قانون ولا يتبعه فى محاكمته اجراء واحد صحيح .

أيجرد من امتيازاته كملك ومن حقوقه كمواطن ؟
أيخذله القانون حاكما ومحكوما ؟
ياله من مصــير عجيب لا يتصور .

ولاحظ فى هــذه المرافعــة أسلوب التعجب المتواصل والاستنكار المتوالى والجرأة الواضحة .

(خامسا) « الاعتدال فى لغة المرافعات »

يجب أن يكون المحامى المترافع معتدلا فى مرافعته بحيث لايرمى زميله بشىء لأن أقبح من رمى الخصم بما لا يجب ، جرح الزميل .

فصحيح أن المرافعات دفع وجذب ، ونادر هو المترافع الذى يملك زمام أعصــابه فلا تجمع به حدة الدفاع . ولكن المسألة مسألة مران . وانك لتدهش ، وقد عودت نفسك التزام حدود الاعتدال ، كيف يسمو موقفك ، وتعلو حجتك ، ويمتاز بيانك .

(سادسا) « المرافعات فى مصر »

وجد حسين صقر واللقانى والباجورى وغيرهم من بناة المجد فى زمن كانت المحاماة فيه مجرد اجتهاد .

وثمة نموذج من هذا المجد الغابر تجده فى شخص شيخ الجماعة وامام الصناعة الأستاذ الأكبر ابراهيم الهلباوى بك .

من ذا يستطيع الى اليوم تحدى بديهتـــه الوثابة ولغته الفكهـــة اللاذعة وسخره القتال .

ومن جبابرة ذلك العصر أيضا : أحمد لطفى بلغته السهلة الممتنعة .

وعبد العزيز فهمى بقلمه ولسانه الجبـــارين يتصرفان فى المعنى وفى المبنى كما يريد ويشتهى . ووهيب دوس صـــاحب المنطق الجزل والديباجة الرشيقة والبيان المتدفق فى غير صنعة ولا تزيد . ومرقس . مرقس الذى لايلحق ولا يدانى . مرقس الجـــذاب الأخاذ ، المتغلغل بسامعه الى الأعماق ، السامى به الى السبع الطباق .

كل هؤلاء يستحق أن يدرس دراسة خاصـــة ، وأن يقـــدمه الى الناس قلم غير هذا القلم وأن توقف عليه جهـــود لا تستطيعها هـــذه العجـــالة .

وفى دراسة هؤلاء الفحول دراسة لناحية مجيدة من أدبنا القومى يجب ألا تهمل .

وحسبك منا هنـــا الاشـــارة الى آثارهم فى مختلف ألوان الكلام القضائى مما لا يحصه محص .

كما أن من جبـــابرة المرافعة فى هذا الزمن نقيب المحامين الحالى الأستاذ أحمد الخواجه ، راقبه وهو يترافع وتأكد أنك ستتعلم منـــه الكثير حين يبدأ وحين ينطلق وحين يزمجر وحين يختم مرافعته بأسلوب سليم صحيح قوى جذاب .

الفصل الثانى

عناصر المرافعة

تمهيد :

المرافعة أو الخطبة القضائية هى التى تلقى فى ساحة المحاكم أمام القضاء طلبا للحكم فى أمر ما ، وهى باختلاف المحاكم التى تلقى بها ، وموقف المحامى أو وكيل النيابة ـ يختلف باختلاف القضية التى يتكلم من حيث نوعها وأهميتها والأحداث التى بنيت عليها .

وقد بين الرسول (ﷺ) أهمية هذا النوع فى قوله لنفر من الأنصار اختصموا اليه (انما أنا بشر مثلكم وأنتم تختصمون الى وقد يكون بعضكم ألحن [1] بحجته من الآخر فأحكم له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له شىء من حق أخيه فانما اقتطع له قطعة من نار) .

وبين هذا الحديث أن المحامى اللبق يستطيع أن يخدع القاضى وأن يلبس الباطل ثوب الحق .

والقضاة الأذكياء يحرصون على ألا يخدعوا ببلاغة الخطيب وأن يبحثوا القضايا التى أمامهم من الوجهة القانونية البحتة ، والخطيب القضائى رغم هذا لا يستغنى عن اثارة عواطف القضاة ، **وبعبارة أخرى أمام هذا الخطيب لنجاحه أمران : الأمر الأول والاهم هو البحث القانونى وتطبيق قضيته عليه .**

الأمر الثانى وهو أمر مساعد وهو جذب عواطف القضاة نحو

ما يدعو اليه • وهذا الأمر الأخير وان كان محـــدود الاثر لا يخلو من أهمية • لأن القانون ذو مرونة ومرونته متروكة للقضاة • فمثـــلا نجد العقوبة فى جريمة ما غرامة لا تقل عن خمسين جنيهـــا وسجن شهر أو احدى العقوبتين فالغرامة قـــد تؤخذ فى أضيق حدودها وقد يكتفى بها وحدها وقد تزيد عن حدها الأدنى ويضم اليها الحبس ، ومن هنا نجد أن عاطفة القاضى لها أثر •

ولكن الاستعطاف يأتى من ناحية توهين المستند والتحـــذير من عقوبة شخص برىء أو هو أقرب الى البراءة وان القانون يفضل براءة الجانى أو عشرات الجناة على أن يعاقب شخص برىء بأدنى عقوبة •

عنـــاصر نجـــاح المرافعـــة القضائيـــة

وأهم ما تعتمد عليه الخطبة القضائية :

١ ـــ درس القضية درسا عميقا شاملا لايغيب عن المحـــامى أى جزء منهـــا •

٢ ـــ وضعها فى الصورة القانونية الملائمة •

٣ ـــ أن تصاغ الخطبة فى صورة منطقية متسلسلة •

٤ ـــ جودة الأســـلوب وقوة التعبير • وكبار المحـــامين يطبعون خطبهم ليقرأها من لم يشهد القائها من المحامين الآخرين والخطباء •

٥ ـــ محاولات تجريح الشاهد أو التماس فارق بسيط بين أقوال الشهود ثم يطيل فى خطبته لاقناع موكله أنه بذل مجهودا •

والخطبة القضائية لها مدارسها ورجالها • ويجب أن نتذكر وصية عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى حين ولاه القضاء ، وهى رسالة

مشهورة مذكورة فى أكثر الكتب الادبية والتاريخية ، ويجب ألا نغفلها ولا يغفلها دارس سواء كان محاميا أو قاضيا أو خطيبا [٢] .

وسوف نعرض لموضوع عناصر المرافعة فى ثلاثة مطالب على أن نعرض فى المطلب الأول لافتتاح المرافعة وفى المطلب الثانى نتناول موضوع المرافعة أما المطلب الثالث فيعالج ختام المرافعة .

المطلب الأول

افتتاح المرافعة

يجب افتتاح المرافعة بمقدمة مثيرة وبشىء يأسر الانتباه فى الحال والخطيب الذى يتمتع بالذكاء يحفظ المقدمة أولا والتى يفضل فى هذا الزمان أن تكون قصيرة كلائحة الاعلان لأن ذلك يتطابق مع مزاج القاضى فى هذا العصر الذى يجب أن يستخلص الحقائق ويجب ألا يبدأ المحامى مرافعته بالاعتذار بأنه لا يجيد المرافعة فهذا خطأ جسيم والأفضل عدم الاستمرار لأنه ليست هناك فائدة من الاستمرار .

ولكن قد يبدأ المحامون مرافعاتهم بتقديم مثال محدد واضح أو الافتتاح بسؤال عام محدد الاجابة عليه تنطبق على القضية كما أن البعض يفتتح المرافعة افتتاحا طارئا بحادثة مثيرة متعلقة بالقضية. ومن المفيد أن يلتقط المترافع أنفاسه فى البداية لكى يزول التوتر العصبى .

والمقدمة هى أول مايطرق سمع الناس فاذا كانت جذابة مشوقة

---

(٢) انظر د/عبد الجليل شلبى — الخطابة واعداد الخطيب — ط ٥ سنة ١٩٩١ ص ١٠٢ .

أنجحت المحامى وجعلت القضـــاة يقبلون عليه واقبالهم عليه يشد عزمه ويثير فيه النشاط والحمية وهى فى جملتها عامل تهيؤ للسامعين ثم يبدأ التسلسل الى موضوعه تدريجيا •

والمحامى فى المحكمة ليس بحاجة الى شد انتباه القضاة بهذا الشكل لأنهم تلقائيا متجهون نحوه مصغون لكل مايقول وهو مع ذلك فىالقضايا الكبيرة مضطر الى مقدمة قد تطول والغرض منها هو التهيئة للموضوع ولبيان أنه يدافع عن الحق لا لأنه منوب من طرف معين • ويقول :

نحن لا نقف اليوم أمام عدالتكم لا لنـــدافع عن هــذا المتهم بل لندافع أصلا عن الحق ولا نقف ضد شخص بعينه ونهاجمه بقدر مانقف ضد الظلم •

مميزات وأسلوب المقـــدمة :

١ — أن تكون مشوقة ذات قـــدرة على شد انتباه السامعين على نحو ماسبق « عنصر التشويق » •

٢ — لكى يصـــل المحامى الى هذه الدرجـــة يبدأ بألفاظ واضحة ومفهومة وأفكار قريبة لاتعوز الى تفكير « حسن البداية » •

٣ — لابد أن تكون شديدة الصلة بموضـــوع المرافعة فلا يكون بينها وبين المرافعة حين ينتقل اليها فجوة ، بل تكون امتداد للمقـــدمة وبذلك يتم ربط الصلة بين المقدمة وموضوع المرافعة •

٤ — من ناحية طول المقدمة أو قصرها يجب أن تكون غير مسرفة فى أى من الجانبين لأنها اذا كانت موجزة جدا لم يكن ثم مقدمة واذا كانت طويلة جدا ذهبت فائدتها أيضا لأنها تستنفد قوة المترافع •

ومن أمثلة افتتاح المرافعة ما يلى :

مثـــال لافتتاحية مرافعـــة :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمى المبعوث رحمة للعالمين ، فان خير بداية دائما هى البدء بحمد الله جات قدرته علىسابغ فضله ونعمته وفائض احسانه ورعايته عليه عز وجل اعتمادنا وبه سبحانه وتعالى اعتزازنا .

وبعـــــد :

فاننى بعد أن استغرقت فى قراءة أوراق تلك القضية وبعـــد أن انتهيت من قراءتها تماما شعرت بدوار فى رأسى وكاد أن يشل تفكيرى وتساءات وصرخت من أعماقى :

ألهذا الحد يصل ظلم الانسان لأخيه الانسان من أجل المال ؟

ألهذا الحد يصل ظلم الانسان لأخيه الانسان من أجل الحقد ؟

ألهذا الحد يصل ظلم الانسان لأخيه الانسان من أجل الأرض ؟

وانتفضت من أعماقى وتمنيت لو دافعت عن هذا المتهم ليس أمام ساحات القضاء الشريفة بل تمنيت لو دافعت عنه فى ساحات القتـــال الشرسة التى خاضها مع أناس لايعرفون طريقا الا الظلم والعدوان .

وسوف ترون عدالتكم وبأنفسكم أن ماحدث فى هذه القضية من أغرب القضايا وتفوق بحق حكايات الخيال المسطورة .

حضرات المستشارين :

لا يخفى على عدالتكم وكما تعلمنا فى محرابكم هـــذا المقدس أن

لكل دعوى شقين لعل الشق الأول هو الواقع أما الشـــق الثـــانى فهو القـــانون •

وفى الحقيقة فان المتهم فى هذه القضـــية يعتبر مجنيا عليه كما أن المجنى عليـــه هو الجـــانى الحقيقى الذى يحـــاول الايقـــاع بـــذلك الصيد الثمين •

ووقائع هذه القضية تقود بأكملها الى براءة موكلىمن التهمةالمنسوبة اليه • واسمحوا لى يا حضرات المستشارين أن يتنوع دفاعى بخصوص معينة وقائع تلك الدعوى الى النقاط الثلاثة الآتية :

ومن المقدمات المشهورة من كتاب الله تعالى :

١ ـــ « رب اشرح لى صـــدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ••• » •

صـــدق الله العظيم

٢ ـــ « يا أيهـــا الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهـــالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين » •

صـــدق الله العظيم

كما وقف أحد المدعين بالحق المدنى فى قضية قتل وقال :

من المعلوم أن المريض اذا أشرف على الهـــلاك أتوا له بأشـــهر الأطباء وأعلمهم وأغزرهم وبالتـــال فان حضور أساطين القـــانون مع المتهم دليل دامغ على ادانته وعلى اشرافه على الهلاك •

ولقد وقف أحد المحـــامين فى قضـــية كبيرة فقـــال : يا حضرات المستشارين :

نقف أمام هذه القضية موقف علماء المنطق من قضاياهم المنطقية انهم يضعون المقـــدمات ثم يرتبون عليها النتائج ، فاذا كانت مقدمات القضية سليمة مقطوعا بصحتها كانت النتيجة المرتبـــة عليهـــا صحيحة مقطوعا بصحتها • يا حضرات المستشارين لقد تنبهت الفتنـــة فى أنحاء قطرنا العزيز وقد كانت نائمة لعن الله من أيقظها •

بهذه العبـــارات أشعر القضاه أن لديه أدلة مقطوعا بها لا تقبل أى طعن أو توهين وعقبهـــا مباشرة أخذ فى شرح المقـــدمات التى كان يريدهـــا •

المطلب الثـــانى

موضـــوع المرافعـــــة

يجب أن يكون (المترافع) سيد موضوعه ومن ثم فان النجـــاح لا يكون الا عن طريق العمـــل الشـــاق والتخطيط الصـــائب والعمـــل التحضير الدائب كما أنه يجب محاولة تذكر التركيب الانشائى • ويجب ألا يبحث المترافع عن الكلمات ولكن يبحث فقط عن الحقيقـــة والفكرة عندئذ تتدفق الكلمات من دون أن تسعى اليها •

ويجب التزام قواعـــد التـــذكرة وتحسين الذاكرة • عن طريق الانطباع — التكرار — ترابط الأفكار • حتى لايتوه مبـــدأ أو فكرة فى المرافعة كما أنه يجب تحضير المرافعـــة قبل الجلسة بيومين على الأقل والا فان الذاكرة ان تعمل الا بنصف مقدرتها الممكنة • لأن العقل هـــو آلة ترابط الأفكار بشكل ما •

والعناصر الأساسية للمرافعة الناجحة :

١ — ضرورة المثـابرة .

٢ — قرار النجـاح .

فلقد كتب شاب ينوى دراسة القانون الى لنكولن يطلب النصيحة فقـال له :

اذا قررت أن تصبح محاميا تكون قد أنجزت نصـف العمل تذكر دائما أن قرارك الذاتى للنجاح أهم بكثير من سائر الأشياء .

اذا تابعت الدراسـة الذاتيـة لفن المرافعـة بحماس واخلاص وثابرت على التدريب فانه يمكن أن تستيقظ ذات صـباح جميل وتجد نفسك أحد أبرز المحامين فى مدينتك .

واذا أردت أن تكون محاميا واثقا من نفسك فانك ستصبح واثقا من نفسك لكن يجب أن ترغب فى ذلك (١) .

ولكن يجب على كل شـخص أن يقوم بتفجـير المزايا الكامنة فى أعمـاقه التغلب على الخوف وكسب الثقة بالنفس والبعد عن الارتباك وفقد القـدرة على التفكير تماما . ومن هنـا يستطيع المحامى للناشىء أن يكون مترافعا بارعا بالتدريب الجاد ومن خلال المقدرة على القـاء الخطابات. فعدم القدرة على المرافعة قد يصل بالمحامى الى وضع مخزى للغاية عندما تتضاعف دقات قلبـه وتتلاشى بالتـالى الأفكار من رأسه ويقف محرجا كالأخرس . ولا شك أن معالجـة ذلك لا يكـون الا عن

---

(١) فن الخطابة — المرجع السابق — ص ٦٥ .

طريق تحضير المرافعــة مسبقا والتدريب عليها باصرار ومن ثم يخف التوتر وتزداد الثقــة بالنفس ويصبح خلال فترة محدده نجم الخطابة والمرافعة بين أقرانه وبالتالى فان كسب الثقــة بالنفس والقدرة على التفكير بهدوء أثنــاء المرافعــة ليس أمرا طبيعيا كما يتخيله البعض وهى ليست فقط مجرد موهبــه وهبها الخالق لأفراد عديدين •• بل ان كل فرد باستطاعته أن ينمى طاقتــه الكامنــة اذا ماكانت لديه رغبــة كامنــة وذلك بالتــدريب والممارســة التى تزيل الخوف وبفك عقــدة اللسان حيث تكون الحــالة العصبية للمترافع أساس ذلك ويلاحظ أن غالبية المترافعين ذوى الجدارة الحقيقية يتميزون بالعصــبية •

فاذا ما تتبعت موضــوعك باصرار وحيوية فمــا من شىء تحت السماء يستطيع أن يهزمك •

واعترف مرة خطيب قائلا : قبل دقيقتين من البدء بالخطاب أفضل لو أنى جلدت على أن استهل خطابى لكن بعد دقيقتين من البدء أفضل أن أقتل على أن أتوقف (٢) •

ويجب أن تفكر مليا وتخطط لحديثك • وتعرف ما الذى ستقوله لأنك ان لم تفعل ذلك ســتكون كالأعمى الذى يقود أعمى فى مثل تلك الظروف • ولذا يجب أن يكون المترافع واع لنفســه يشعر بالنــدم والخجل ان أهمل • ومن ثم لا تتكلم حتى تتأكد أن لديك ماتقوله •

والخطأ المميت الذى يقترفــه الكثيرين هو اهمــال تحضــيرهم للمرافعة فهو خوض للمعركة بعدة فاسدة أو بدون عدة على الاطلاق • ولذلك فان القواعد الصحيحة فى المرافعة هى اتباع مايلى :

---

(١) فن الخطابة ــ المرجع السابق ــ ص ١٤ •

١ — التحضـــير :

(أ) لا تأخذ الأفكار المعلبة كمـــا هى من الكتب والا ســتكون المرافعة هزيلة وناقصة ٠

(ب) يجب ابلاغ الرسالة الحقيقية الى المستمعين ٠

(جـ) يجب أن تستخرج المواد الخام من منجمك الخاص ٠

٢ — التفكير فى التحضير عن طريق كتابة كل شىء عن الموضوع ٠

٣ — تحديد موضوع المرافعة : لماذا ، كيف ، متى ، وأين ٠

اجعل الحـــديث مثل كعكة مزينـــة بالأمثلة والقضـــايا العـــامة والعبارات الخلاقة ٠

٤ — سر الطـــاقة الاحتياطية :

المرافعات الرائعة يجب أن تتسلح بمادة احتياطية وافرة وفائضة فلا نكون كمن بدأ دون أن يعرف ما الذى سيقوله وانتهى من دون أن يعرف مانطق به والذلك فانه يجب حفظ بعض الأقـــوال المـــأثورة عن مرافعات كبار المحامين التى ظلت عبر العصور نبراسا يهتدى به فى أشد الأوقات حلكه ٠ ومن أمثلة ذلك :

— لو أنصفتنا النيابة العامة لما تركت هذا الشاهد ٠

— القضاء هو القـــانون الحى وبغيره يصبح القانون فعلا مجردا عاجزا لا خير فيه ولذلك فنحن نمتلىء احتراما للقضاء ونحيطه بالتقدير والمحبـــة ٠

ـ ولذلك فان ضـوء العـدالة سـوف يلمع دائمـا ويطهر كل ما هو دنس •

ـ وسوف يبزغ فجر العدالة على الجميع •

كما يجب علاج العمود الفقرى فى القضية ولا تنظر الى الضلوع والتركيز على مفتاح الحـديث فى الدعوى لأن : الحقيقـة ليست بنت الجدل ولكنها بنت البحث الكريم •

ومن الأمثلة الانشائية أيضا :

ـ ان اللغم المضىء فى هذه القضية هو كذا أو كذا •

ـ واذا كان المنطق هو ذلك الشىء الذى اذا عرض على العقول تلقتـه بالقبول • فان هـذه القضـية قد خلت من أساسيات ومبادىء المنطـق •

ـ الضوء الساطع ـ الخايـة الضـوئية ـ الكائنـات الضوئية فى الدعوى •

ـ الصيد الثمين قد وقع فى الفخ •

ـ ان وقوف المتهم لحظة واحـدة فى قفص الاتهـام ينسيه ألف كتاب قرأه عن الحرية •

ـ ان الأدلة هى السلاح البتـار فى الدعوى ولذلك يجب عرض الأدلة تفصيليا •

« أقوال مأثورة فى موضوع المرافعـة »

ان الرياء يظل رياء وان قلم أظافره والغش يبقى غشا وان لانت ملامسه ، والكذب لا يصير صـدقا وان لبس الحرير وسكن القصور ، والخداع لا يتحول الى أمانه اذا ركب القطـار أو اعتلى المنطـاد ، والجرائم لا تصـير فضـائل وان سـارت بين المعاهـد والفصول — والعبودية ستبقى عبودية ولو طلت وجهها وغيرت ملابسها فهى عبودية ولو دعت نفسها حرية •

ويقولون لى اذا رأيت عبدا نائما فلا توقظه لئـلا يحلم بالحرية فالنـاس عبيد الحياة وهى العبودية التى تجعل أيامهم مكتنفـة بالذل والهوان ولياليهم مغمورة بالدموع والدماء وهـذه هى الحقيقة ومن ثم فان الله الخالق سبحانه وتعالىقد جعل الحقيقـة ذات أبواب عـديدة يفتحها لكل من يطرقها بيد الايمان •

فماذا أقول فيمن استدان مالى ليشترى سيفا يبارزنى به ورجل فتك برجل آخر فقال النـاس هذا قاتل ظالم — وعندما فتك به القاضى قال النـاس هـذا قاضى عـادل • ورجل حاول أن يسلب الـدير فقـال النـاس هـذا لص شرير وعنـدما سلبـه القـاضى حيـاته قـال النـاس هـذا قاض صـالح ، وامـرأة خانته بعلها فقال النـاس هى زانيـة فاجرة ، ولكن عنـدما سـيرها عارية ورجمها على رؤوس الاشهاد قالوا هذا قاضى شريف فان سفك الدماء محرم ولكن منحلله للقاضى وسلبالأموال جريمة ، ولكن منجعل سلب الأرواح فضيلة • وان خيانة النساء قبيحة ولكن منجعل رجم الأجساد جميلا وانالتقاليد الفاسدة تظلم الضعيفاذا سقط أما القوى فتتسامحه

وان المجرم لايحاكمه المجرمون، والكافر الشرير لايدافع عن نفسه أمام الخطاه وان الشفقة لا تجوز على اجرمين الضعفاء أما العــدل فهو كل ما يطلبــه الأبرياء وان المــال مصــدر شرور الانسان والحب ينبوع السعادة والنور فالمنجمون لا يحولون مسار النجوم والسجين المظلوم الذى يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جبانا •

وجميل أن تعطى من يسألك ما هو فى حاجة اليه ، ولكن أجمل من ذلك أن تعطى من يسألك وأنت تعرف حاجته فان من يفتح يديه وقلبه للعطاء يكون له فرح بسعيه الى من يتقبل عطاياه والاهتداء اليه أعظم مما بالعطاء نفسه •

* فليس القتيل برئيا من جريمــة القتل ، ولا المسروق بلا لوم فى سرقته وكثيرا ما يذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه فانما اللص صنيعة المحتكر ، والمجرم خليقة الظالم ، والقــاتل صنيعة القتيل ، والخبيث ثمرة العربيد ، والعقوق نتيجة الصارم •

وقد تفلح الحيلة فى البــداية ولكنها تخيب فى النهــاية والمتفائل ينظر الى الوردة ولا يرى أشواكها ، والمتشائم يحدق فى الأشواك ولا يرى الوردة ولذلك ابعــدنى رباه عن لســان المرأة الأفعى التى لوثت الحياة•فالحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها ،وهى امرأة ترتدى بالأيام البيضــاء المبطنــه بالليــالى السوداء وهى أيضا امــرأة ترضى بالقلــب البشرى خليــــلا وتأبــاه حليــــلا • وهى أيضــا امــرأة فاســقة ولــكنها جميلة ومن يرى فسقها يكره جمالها وليس من يكتــب بالحــبر كمن يكتــب بــدم القلب • وقــد بنى الله الأجسام هياكل للأرواح فعلينــا أن نحافظ على هذه الهيــاكل لتبقى قوية فالحب كنز ثمين لا يودعه الله الا القلوب الكبيرة الحساسة •

المطلب الثـالث

ختـام المرافعـة

ان الخاتمة فى الحقيقة هى أكثر النقاط استراتيجية فى فن المرافعة فما يقوله الانسان فى النهاية هو مايبقى يرن فى الآذان وعالقا بالذهن• ولأهميتها فان الخطباء المشهورين يقروا أنه من الضرورى كتابة وحفظ الكلمات المنـاسبة فى زهنهم • وقد تكون الخاتمة طويلة الى حـد ما كما قـد تكون بهـا مقتطفـات شـعرية • ويجب أن تكون الخـاتمة واضحة مثل طلب براءة المتهم أو الحكم عليه بأقصى العقوبة ومن أهم شروط الخاتمة ما يلى :

١ ــ ألا تكون بعيدة عن الموضـوع ولا مجـددة لأدلة أو آراء جـديدة •

٢ ــ أن تكون قوية فى تعبيرها وأيضا فى القائها •

٣ ــ أن تكون قصيرة على نحو ما وتكون حاسمة ومشوقة •

ومن أمثلة الختام الجيد فى المرافعات :

« أنتم قضـاة الحق ولكنكم أيضا مربو الخلق وكامة العدل التى بها تنطقون يتجاوب صـداها فى نفوس ناشـئة ونفوس ثائرة ونفوس فزعة حائرة فاجعلوا حكمكم رسـالة عدل وبلاغ عبرة وبشرى سلام فاذا جنحتم الى الرحمة فاشملوا بها النشىء وقـد أوشك أن يأتوى والبلاد وقد دب فيها ذلك الداء الوخيم •

أنتم أطبـاء النفس كما انكم قضـاة العـدل والطبيب البصـير

لا يتردد ولا ينى عند الضرورة الحاكمة والقاضى الحازم يهذب بالزجر الحكيم ٠

واذنوا بين روعـــة الرحمـــة وقـــد حلت بالبـــلاد وبالنشىء وبين ضالتها ان هى حلت بهـــذا المجرم العتيد ثم اقضـــوا قضـــاءكم والله معكم انه نعم الهادى ونعم النصير ٠

الفصل الثالث

أحكام المرافعـــــة

تمهيـــد وتقسيم :

سنعرض فى هذا الفصل للأحكام العامة فى المرافعة أمام القضاء الجنـــائى فى ثلاث مطالب على أن نوضح فى المطلب الأول للارتجال فى المرافعة وفى المطلب الثـــانى نتناول مقدمات الترافع الناجح ونخصص المطلب الثالث لدستور المرافعة .

المطلب الأول

(ارتجـــال المرافعـــــة)

لقد جرت العـــادة على تقسيم المرافعة الى مقدمة أو تمهيد ثم عرض للموضوع يليه المناقشة وهى لب المرافعة وجوهرها .

وخرج البعض على هذه العـــادة فلم يأبه بالمقـــدمة ولم يقسم المرافعة الى قسميها التقليديين ــ العرض والمناقشة ــ انما كان يسوق الوقائع ويناقشها معا حتى اذا انتهى من السرد سقطت أدلة الخصـــم من نفسها ، والمحامون يكونوا مستعدين عند قبول الوكالة لأن يلاقوا وهم يؤدون واجبهم من العقبات والأخطار ما يلاقيه الجنود فى الميدان من طوارىء ومفاجآت .

وقيل ان المرافعـــة تمثل العدسة التى تكشف القـــاضى التعاريج والمنحنيـــات الدقيقـــة التى يعتمد عليها الخصـــوم فى تكييف المنازعة

وتوجيهها نحو مصلحتهم • والقاضى مهما كان ذكيا فطنا أو مهما توافر وقته لبحث الخصومة المعروضة عليه فى حاجة لذلك المنظار يساعده على ملاحظة تلك الوقائع ، وقد تكون من أهم النقط التى توجه تقديره لصلحة أحد المتخاصمين فيقضى له ، ولولا اكتشافها لقضى للخصم الآخر • ويتعين أن يركز المحامى وينتبه حتى لا ينسى أو يقدم نقطة على أخرى ، وأن يكون ثابتا لا يهتز أو يضطرب اذا فوجىء بما ليس فى الحسبان ، صبورا موطدا النفس على سعة الصدر مهما تعرض المقاطعة •

وأخيرا فان المحامى يستعمل قوة حجته وسلامة منطقه وجزالة عبارته وسحر شخصيته وشحذ كل حواسه للوصول الى عقل ووجدان قاضيه •

الأسلوب واللغة :

ليس ضروريا أن تكون كل المرافعة بألفاظ مقعرة وباللغة العربية الفصحى ولكنه يتعين الجمع بين الاثنين بحيث يستطيع المحامى أن يدفع الملل والرتابة بعيدا عن قاضيه •

وقد كان الهلباوى يتكلم الفصحى فيفوق فقهاء اللغة ولكن الرجل محام بطبيعته وسليقته فهو يعرف أن العربية الصحيحة ماتزال اليوم لغة صعبة ، وأنها ماتزال تجهد المخاطب والمخاطب •

الدفاع كامل حريته :

فالمحامى يقف غالبا ليدفع عن متهم أحاطته النيابة والبوليس بسياج متين من الأدلة والبراهين ، وأحاطه الرأى العام وصحفه بجرائده بحكم قاس سبق به حكم القضاء • وليس للمتهم الأعزل الا ذلك الرجل الذى وقف علمه وفضله ولسانه على الدفاع عنه ، فان

نحن ضيقنا عليه الخنــاق وحاسبناه على كل لفظ يفلت منه أو تعبير يسبق به لسانه لم نمكنه من أداء واجبه• فحرية الدفاع ملك للمحامين، وأعطيت لهم للمصلحة العــامة ، لمصلحة المواطنين جميعا ، وليس لأحد أيا كان أن يعتدى عليها •

ولقد وقف محام فرنسى مشهور يترافع فى قضــية ، فنسب الى النائب المترافع أنه قــد لجأ فى مرافعته الى استغلال الشهوات الضارة وأن هذا ليس بالأمر الحسن ، فعد قوله هــذا مخالفة تأديبية وحوكم من أجلهــا ، وكان دفاعه عن نفســه أن قال : « أما شخص النــائب المترافع فمنفصل عن مرافعتــه كل الانفصال ، فشخصه محل اجلالى واحترامى ، ولا أبيح لنفسى أن أهاجمه ، ولكنى أهاجم مرافعته ، فهى ملكى ومن حقى أن أمزقها اربا وأن أطأها بقدمى » وقد أدانته محكمة الاستئناف بباريس وقالت ان من حق المحــامى أن يدافع عن موكله ولكن ليس من حقه أن يهــاجم • فردت عليهــا محكمــة النقض بأنه لا دفاع بغير هجوم أننــا اذا ألزمنا المحامى أن يقيس ألفاظه ومعانيه، وأن يخشى ما قــد يعطى لها من تفسير لم يقصــده وأن يرهب ما قد تؤدى اليه من معان لم تخطر له ببال فاننــا نكون قد قضــينا على كل مرافعة ارتجالية ، وأطفأنا جذوة البلاغة القضائيــة ، لأنه لا مرافعة بغير ارتجال •

حرية المرافعة (حرية الدفاع)

ولقــد حرص المحامون دائما أن يكونوا أحرارا فى مرافعــاتهم مستقلين فيما يختطونه من خطة ولا يخضعون لتوجيه أيا كان مصدره•• فلا هم خاضعون لتوجيه القــاضى ولا لتعليمات صــاحب القضية بل مؤدون رســالتهم بما يملى عليهم ضمائرهم لا يرهبون أحدا ماداموا لايعتدون على أحد الا اذا اعتدى عليهم وما لهم اعتداء الا بالقدر الذى يتطلبه الدفاع •• فاذا أحس بضغط من أى نوع كان تعثرت كلمــاته

وضعفت حجته وفقــدت آراؤه جرأتهــا وانطلاقها ولولا حرية الدفاع لضاعت الحقيقة بين الناس اذ لاتجد من يعبر عنها ومتى ضاعت الحقيقة ضاعت العدالة التى هى أساس الحكم وبغيرها تسود الفوضى ولا يقوم نظــام . والمحامون هم أســـاس ذلك النظام وهم روح العدالة واذا كانوا لايكتبون الأحكام فانهم يعدون لها ببحوثهم ومرافعاتهم فيقدمون للقضاء المادة الأولية لصناعته (!؟) .

وأولى مميزات المترافع الجيــد هــو التواصــل بحيث يشـــعر القاضى أن هنـــاك رسالة موجهة من ذهن وقلب المحــامى الى ذهنـــه وقلبـــه . ويجب أن يكون الالقـــاء بالأســـلوب الطبيعى حتى ليخيل للمستمع أنك قـــد وضعت فى مرافعتك حتى تصبح محاميـــا محترفا من الطراز المترافع لأن النـــاس تتجمع حول المحامى المفعم بالطاقة أو مولد الطاقـــة البشرى صاحب الابتسامة الساحرة الذى يجعل الآخرين فى حالة استجابة دافئـــة له دائما عندما يجعل مرافعتـــه له طبيعيـــة كالحديث الودى الدافىء الجميل الممتلىء حيوية وصدقا .

وعند بداية المرافعة لمخاطبة القاضى فيحسن ألا تبدأ بالعجل فتلك سمات المبتدئين بل تنشق نفســا عميقــا وتطلع الى قاضـــيك للحظة واحـــدة وان كانت هنـــاك ضجة فى ساحة المحكمة فترقب قليلا حتى تزول ثم ابدأ مرافعتك كما تريد بكل تلقائيـــة وابعث فيهـــا الحيـــاة بكلماتك المضيئة .

فقد تكون المرافعـــة جيدة الأفكار وحسنة العبارات والأسلوب ، ثم لا تظفر بالقاء جيد فتضيع فائدتها اذ لا يفهمها السامعون ولا تجذب انتباههم ، وقد تكون أقل من ذلك فى اعدادها ولكن جودة القائها تنهى الى السامعين كل جزئية منها ، فتكون فائدتها أكبر وأكثر .

الالقاء الجيد له قواعد من أهمها ما يلى :

١ — جهارة الصوت وقوته .

٢ — حسن مخارج الحروف وتميز أجزاء الكلمة .

٣ — تلوين الصوت وتكييفه ، فيجهر المحامى مرة ويعلو صوته ويلين مرة أخرى حتى يكون كلامه همسا كما يسرع فى جملة ويمد صوته فى أخرى ولابد أن يميز لهجة الاستفهام من لهجة الخبر وهكذا لايستحسن لهذا أن تكون المرافعة مكتوبة ولا محفوظة ولكن على المحامى أن يعد عناصر مرافعته والأفكار التى يريد نقلها ثم يعبر عنها بطريقته ، وهذا يتوقف على مقدرة المحامى الكلامية ومحصوله اللغوى ومحفوظاته الأدبية كما يتوقف على حسن تفكيره وقدرته على تحليل موضوعه .

٤ — لابد من جودة الالقاء من الاشارات باليد أو بغير اليد أيضا فان هذه الاشارات مما يوضح المعنى ويثبت أثره فى مسامعه ، وفى هذا يقول الجاحظ : « والاشارة واللفظ شريكان . ونعم العون له ونعم الترجمان هى عنه وما أكثر ماتنوب عن اللفظ وتغنى عن الخطأ » فالمحامى الذى لا يكون متأثرا بكلامه يفقد أهم صفات المحامى المؤثرة .

أما من ناحية التدريب على الالقاء فلابد لمن يعد نفسه لهذه المهمة أن يمارسها مرات عديدة وأن يمرن نفسه عليها فى وحدته وبين رفاقه المتدربين حتى يحرز فيها تقدما . هذا كما أنه لابد من التكوين الأدبى بكثرة المحفوظات الأدبية خطبا وشعرا وكتابة مع الدرس التاريخى والتثقيف العام والقراءة المستمرة حتى لا يكون ذهن المحامى راكدا . وهذا ما يفيد المترافع فى الحالات التى يتعرض فيها للارتجال .

فليست المرافعة غزارة علم أو زخرف كلام ، انما حياة الدفاع فى

طريقة عرضه وحسن اختيار الأدلة ودقة ترتيبها وفى تصوير الدعوى والرد على أوجه دفاع الخصوم وخير المترافعين هو الذى يستطيع أن يستقرىء ميول القاضى ويتابع تفكيره ويسبقه الى مايقع فى نفسه من الخواطر والالهامات مما يؤدى الى المزاوجة بين طرق الاقناع والاقتناع التى من شأنها أن يتبعها قبول حسن من القاضى لرسول صاحب الحق ٠

وتقوم المرافعة على الاسناد القانونى والتدليل المنطقى وقرع الحجة بالحجة وقوة البيان وثبات الجنان والاستعانة — بقدر — بالتأثير العاطفى لاستدرار عطف القاضى أو اثارة غضبه حسبما يتراءى للمدافع تمشيا مع وجهة نظره ٠

ويتعين أن يكون المترافع يقظا حاد الذهن واسع الصدر والحيلة عند استجواب المتهمين أو مناقشة الشهود لحماية موكله — ومحاصرة الملفقين وشهود الزور حتى تظهر الحقيقة فينكشف البطلان ويتحصل على البراءة ٠

والارتجال فى المرافعة هو قمة البلاغة القضائية ولا توجد مرافعة بغير ارتجال ويعتمد الارتجال بالدرجة الأولى على حضور البديهة التى هى بطبيعتها هبة من عند الله لذلك يلجأ الكثيرون ومنهم بعض الكبار الى كتابة مرافعاتهم قبل الجلسات بلغة المرافعة وهى لغة تختلف فى طبيعتها وأسلوبها عن لغة المذكرات التى تكتب لتقرأ فيضع المترافع لنفسه فى هذه المرافعة التى تبدو طبيعية تصورا للدفاع لا يحيد عنه ثم يقوم بالتخديم عليه أثنا المرافعة بما يناسب الحال من رصيده المختزن من المقدمات أو النهايات المرتجلة ٠

والخطباء وخصوصا المحامين يحتاجون الى حضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وربما سنحت للمحامى كلمة من خصمه لم يكن يتوقعها ولكنه يتصيدها بسرعة ويبنى عليها مرافعته ولا تستغنى البديهة

الحـادة عن ذخيرة الثقـافة والمحصول الأدبى فالارتجال هو موهبـة الاختراع فى شكله الأكثر بدائيـة • انه فن التبـارى مع المفـاجىء والطوارىء ، والافادة من الظروف الغير متوقعـة • على الشاب الذى يود النجـاح أن يتعلم ممارسة هـذا الفن الى درجة يصبح معها رد فعل ، بحيث يكون فكره حاضرا دائما وغير مضعضع البته عندما يجـد نفسه فى موقف لم يواجه مثله من قبل ويمثل الارتجال دورا كبيرا فى المحاكم • وهو ذو أهمية فائقة فى فن تحقيق النجاح فى الحياة العملية والتجـارة •

طريقـة الاتجـال

وعلى المحامى أن يكون دارسا تماما لموضوعه وأن يضع فى ذهنه أو على ورقـة ما النقـاط التى يقوم بالتحدث فيهـا •• وما عدا ذلك يكون خطابه كله مرتجلا وعليه أن يحظى بالدقة ونوع الأسلوب الذى يستعمله لو أراد كتابة مقـال مجلة وبهـذا الثمن وحـده يستطيع أن يشـترى ذاك الاحسـاس التلقـائى والاسـتجابة الطبيعية بالشعور والمساواة بينه وبين سامعيه •

فالعيوب المزعومة التى تنسب الى الخطاب المرتجل هى فى الواقع من صـور جاذبيته فالجمل الاعتراضـية التى تتضمنها والفواصـل والعبارات الغامضة والتكرار كلهـا ذات تأثير فعـال مادامت النقـاط موجودة فيـه وما دام ذلك المحـامى قادرا على أن يوجه حربته أثناء المرافعة الى حبل الوريد •

عـدم ارهـاق المحكمـة

مامن محكمة تستطيع الاصـغاء لرجل بانتبـاه أكثر من سـاعة واحد فلا تكثر من الاستمرار فى الكلام اذا كان ذلك يرهق المحكمة فاذا لم يكن قـد أثقل على المحكمة فليتحدث بالقـدر اللازم لشرح جميع

النقاط الأساسية فى القضية وهنا يجب على المرء أن يحرص على العمود الفقرى فى القضية فلا يحيد عنه الى الضلوع المتفرقة منه وبالتالى يجب على المحامى أن يشعر وأن يجعل المحكمة تشعر لا لأن موكله محظوظ لأنه اختاره كمحام بل أنه هو المحظوظ لوقوع اختيار موكله عليه للدفاع فى قضيته •

عند الالقاء يجب ملاحظة النقاط الآتية :

١ ـ شدد على الكلمات المهمة واخفض على غير المهمة •

٢ ـ غير طبقات صوتك •

٣ ـ توقف قبل وبعد الأفكار المهمة •

٤ ـ غير معدل سرعة صوتك •

فالموهبة حضور وشخصية •

فالناس تعجب بالمحامى المطعم بالطاقة حول مولد الطاقة البشرى صاحب الابتسامة الساحرة ولذلك فانه يجب أن تجعل خطابك للمحكمة كالحديث ـ طبيعيا ـ عندما تنهض لمخاطبة المحكمة •

ولن تستطيع أن تجعل القاضى يتفهم موضوعك الا عندما تفهمه أنت وكلما اتضح الموضوع فى ذهنك كلما استطعت تقديمه بوضوح فى ذهن القاضى • استخدم أمثلة عامة ووقائع محددة وأحاديث قدسية والقرآن الكريم ويجب استخدام الكلمات التى ترسم الصور مثل كلمة الضوء وحفظ بعض الأقوال المأثورة هو جواز السفر للوصول الى المحكمة •

وتحسين الأسلوب :

فالمحامى يقاس من خلال حديثه ومرافعته ويجب محاولة صقل التعبير والتحدث بأسلوب جيد بعدم خرق قواعد اللغة وازعاج الأذان حيث يوجد محام موهوب منحته الطبيعة هبة تأليف الكلمات ومن هؤلاء تأتى أروع الخطب •

المطلب الثانى

مقومات المترافع الناجح

لاشك أن الخطابة منصب خطير ومرتقى صعب المنال ، لا يصل اليها طالبها بيسر بل يحتاج مبتغيها الى زاد عظيم وصبر ومعاناة ، واحتمال المشاق ليصل الى تلك الغاية السامية •

والنبى ﷺ هو القدوة لكل ناصح وخطيب ، فمهما اقتدى الخطيب بهدى النبى ﷺ نال من النجاح بقدر موافقته وتوفيق الله عز وجل له •

قال الجاحظ : أوتى ﷺ المهابة ، وغشى الله كلامه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، فلم تسقط له حجة ، ولم تعثر له كلمة ، ولم يغلبه خصم وانما أوتى جوامع الكلم ﷺ • كما قال أحمد شوقى :

فاذا خطبت فللمنابر هزة   تعرو الندى وللقلوب بكاء

وتاريخ المرافعة القضائية يرتبط بلا ريب بتاريخ انشاء القضاء ولكن المرافعة نشأت قبل القضاء لأنها نوع من المحادثة ومخاطبة البشر كما أن نجاح المحامى وفشله يرجع الى أمرين رئيسيين : جودة المعلومات التى يقدمها أو ضحالتها ، وحسن القائه أو ضعفه

فالمحامى المطلع الذى يمد القــاضى بمعلومات جــديدة غير الذى يكرر معلومات يعرفهــا السامعون والذى يلقى مرافعتــه بطريقــة فنية ، معبرة موحية ، غير الذى يسرد المعلومات سردا وفن الخطابة هو فن مخاطبة الجماهير بطريقة القائيــة تشتمل على الاقنــاع والاستمالة • فمن الخطباء من يكون فاتر الالقاء ضعيف التأثير فتضيع أدلته الكثيرة المقنعة هباء • ومنهم من يأتى بأدلة أقل أو أضعف ولكنه يثير عواطف السامعين ويلهب مشاعرهم فيتحمسون لتنفيذ فكرته ويحاول كل واحد منهم أن يعمل على تحقيق شىء منها بقدر طاقته •

ومن سمات الأسلوب الخطابى وضوح العبارات وظهور معانيهــا بحيث يكون الغرض الذى يهدف اليه مفهوما للسامعين • وبعض الخطباء يجعل خطبتــه كلها باللغة العامية وهذا خطأ كبير فاللغة الفصحى لهــا جمالها وتأثيرها حتى على العامة واستعمال العامية الخالصة أو الاكثار منها يفقد الخطبــة هــذا التــأثير ثم ان بين المستمعين مثقفين ، ولا يستريحون لهذا الأسلوب بل يؤذى شعورهم •

ولن يستطيع المحامى أن يجعل القــاضى يفهم موضــوعا ما الا عندما يفهمه هو وكلما اتضح الموضوع فى ذهنــه كلما استطاع تقديمه بوضــوح فى أذهان الآخرين ويفضــل اســتخدام أمثلة عامة ووقائع محددة فى موضــوع المرافعــة • بحيث أن يعتمــد المترافع على منح الحمــاس والاثارة وبحيث أن يقوم أيضا بتحسين أسلوبه فهو جواز المرور الذى يدخله فى عداد المحامين الناجحين لأن الفرد يقاس كل يوم من خلال حديثــه بالاســتخدام الــدقيق والصحيح بحيث يصــبح موهوبا بفن هبــة تأليف الكلمات ليصل الى أروع الخطب عن طريق سعة المحفوظــات الأدبيــة من الشعر والنثر ومأثور كــلام العــرب

من الحكم والأمثال والوصايا هذا فضلا عن حفظ الكثير من القرآن وحفظ الكثير من الأحاديث النبوية • ونجد المحامين فى المحاكم وأعضاء البرلمانات يستعينون بالآيات القرآنية والأحاديث فى تأييد وجهة نظرهم وفى رفع أسلوبهم الخطابى • وليس الغرض من هذه المحفوظات هو الاستشهاد ولكن الغرض منها هو اللغة وسهولة التعبير •

وأيضا من أهم الشروط الجرأة والشجاعة والثقة بالنفس بما يقول ومن نصائح الأقدمين : انك لا تتعلم الخطابة حتى نتعلم القحة والمراد بالقحة عدم المبالاة بأى شىء يكون معارضا له ويرجع ذلك الى الجرأة وقوة الجنان ومن أمثلة ذلك :

أيها السادة الى هنا صفقتم وضحكتم لأن الرجل خدعكم بكلام معسول ولكن انظروا ههنا مايستحق أن تتأملوه • ومع كل هذه الصفات السابق ذكرها فى التدريب العملى والاعداد النفسى لمواجهة الجمهور لابد له أن يتوقع الفشل مرات كثيرة شأنه فى هذا الشأن كل متعلم يسقط مرة وينهض مرة أخرى حتى يتم تكوينه وتربيته ، وانك واجد فى تاريخ الخطابة أشخاصا كانوا يخطبون للمقاعد الخالية وأمواج البحر ولأشخاص وهميين وقد اجدى عليهم ذلك وخرجهم خطباء متفوقين وممتازين •

ومن شروطه أن يكون عالما باللغة العربية • وبالأخص علم الانشاء كى يقتدر على تأليف كلام بليغ وتنسيق درر مضيئة يشرق نور أسرارها على أفئدة السامعين فيسحرهم ببديع لفظه ويختطف ألبابهم بجواهر آيات وعظه •

ومن شروطه أن يكون لسنا فصيحا منطلق اللسان معبرا عما يخطر بباله من المعانى الكامنة فى ضميره ويبرز ما انطوت عليه السريرة من جليل النصائح وجميل الارشادات •

ومن شروطه أن يكون وجيها تهابه القلوب وتجله العيون وتعظمه النفوس يهابه الصغير ويوقره الكبير حتى يكون لكلامه تأثير ويجد له سميعا يعى ما يقال ويعمل بما يسمع .

ومن شروطه أن يكون عالما بالقرآن والسنن والفروع واللغة العربية وأن يكون نبيها وسلاحه أدوات الكلام فلا يكون التغ ولا ألدغ ومن مقوماته دراسة أصول الخطابة وسعة الثقافة .

ومن أهم شروط المحامى المترافع أن يقوم بحفظ آيات من القرآن الكريم وحفظ الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية والامثال العامية والمواعظ والحكم والوصايا .

المطلب الثالث

دستور المرافعة

تمهيد وتقسيم :

نعرض لدستور المرافعة فى هذا المطلب على أن نوضح أولا الدستور الأساسى للمرافعة الجنائية ثم نوضح بعد ذلك دستور العمل على قهر الخوف الناشىء عن المرافعة بعد ذلك .

أولا : دستور المرافعة (١)

١ — لا ترتكن على مقدرتك الكلامية ، وبلاغتك فى التعبير ، بل أعدد قضيتك كما لو كنت لا تحسن الكلام .

---

(١) حسن الجداوى — اراء متناثرة عن نهضة الجبابرة — كنوز المحاماة المرجع السابق — ص ٣٤ .

٢ — الوضوح وحسن التعبير أفيد للمترافع من قوة الحجة . فلا قيمة للحجة اذا لم يحسن المترافع شرحها .

* * *

٣ — لا يكفى أن تلقى المرافعة واضحة مستوفية الحجج مرتبة ، بل يجب أن تعرف كيف تعالج قاضيك وتلعب على أوتار قلبه . فالعلم وحده لا يكفى ، وبلاغة التعبير وحدها لا تقنع . بل يجب تغيير طريقتك تبعا لحالة قاضيك النفسية . وعليك أن تروض نفسك على الاستفادة بحوادث الجلسة ، وأن تدلى بحجتك فى الوقت المناسب ليزداد أثرها ، وأن تعرف كيف تهاجم حين يكون الهجوم ضروريا ومفيدا . ومتى تصمت حين يكون الصمت أوقع ، ومتى تبتسم ومتى تعبس ، ومتى تلجأ لتأثير العاطفة ، ومتى تتحدث الى عقل القاضى ، **فكثيرا ما يكون التمثيل مكملا لصناعة المحاماة .**

* * *

التحمس والعناد فى سبيل كسب الدعوى يجب ألا ينسيا المحامى أنه انما وكل فى الدعاوى ليحول دون ترك العنان لشهوات الخصوم ولددهم ، ولكيلا يدع مجالا لأصحاب القضايا فيعكروا على العدالة صفوها . فكل لفظ ناب ، وكل اهانة ، وكل تعرض لأشخاص لا شأن لهم بالدعوى ، أو ذكر لوقائع غير مجدية ، أو سب ، يجب على المحامى الذى يحترم نفسه أن يتجنبه أداء لواجبه ، وتحقيقا للعدالة .

* * *

أن المحامى والقاضى والنائب أقاليم ثلاثة تتكون منها وحدة العدالة . فاحترام المحامى لقاضيه ولممثل النيابة ، والتزامه الأدب والنظام والدقة ، انما هو احترام لنفسه . ولا يكون الاحترام فى المظهر الخارجى وحده ، بل هو احترام لرسالة العدالة المقدسة ، ولمن حملوا أمانتها ، فهو احترام عميق أصيل . وانما نما القضاء وسيطر ،

ومكن له ، وثبتت أحكامه ، على أصوات المحامين ، وبفضـــل جهودهم وبحوثهم •

* * *

٤ — لا تترافع للجمهور • ان حجتك تفقد الكثير من قوتهـــا اذا أحس القاضى أنك لا تسعى لاقناعه بل تريد الظهور •

* * *

٥ — لا تهـــاجم قاضـــيك ولا تتملقه •

* * *

٦ — قد يترافع المحامى ساعتين ويكون مقلا • وقد يترافع غيره خمس دقائق ويصبح مملا •

* * *

٧ — أقلل من السخرية • واذا استعنت بهـــا فكن حصيفا ، فان القاضى لا يسره أن تسليه على حساب خصومك •ولكنه يتوقع منك أن تقـــدم اليه حججا مقنعة ، يستعين بها فى تركيز حيثيات حكمـــه على أرض صخرية صلبة •

* * *

٨ — اجتهد أن تستحوذ على انتباه قاضيك عند أول جملة تقولها، ولخص موضـــوع البحث فى ألفـــاظ قليلة واضحة لتضمن أن يتابعك القاضى حتى نهاية مرافعتك •

* * *

٩ — ليس معنى حرية الدفاع أن تتحدث فى مسائل بديهيـــة ، أو خارجة عن موضـــوع الدعوى ، أو تتعرض لأشـــخاص لا علاقـــة لهم بالدعوى •

١٠ — لا قيمة لحرية الدفاع اذا استعملها المحامى فى نشر المفتريات وجبن عن فضح المظالم •

* * *

١١ — تذكر وأنت تترافع أن الكلام الغامض عن وقائع واضحة يجعلها غير مفهومة ، فى حين أن الحديث الواضح عن وقائع غامضة يلقى عليه بصيصا من النور •

* * *

١٢ — ان كانت قضيتك ضعيفة فلن تستفيد شيئا من اخفاء نقطة الضعف فيها ومحاولة الدفاع عما لا يحتمل دفاعا • وخير لك أن تعترف بما لا سبيل الى انكاره ليسهل عليك اقناع قاضيك بقبول ما تريد اقناعه به ، **فان الاخلاص فى عرض الوقائع ومناقشة الأدلة هو سلاحك البتار •**

* * *

١٣ — معرفة الحقيقة شىء والتعبير عنها والاقناع بها شىء آخر• ان اقناع القاضى يتطلب — فضلا عن قوة التعبير — طريقته ، وذلك السر الخفى الذى لا يتمتع به الا القليلون ، وهو ملكة بث الثقة ، بل فرضها فرضا على السامعين •

* * *

١٤ — ابتعد عن تعبيرات الملق • **لا تطلب شيئا من (عدالة) المحكمة ، بل اطلب حقك من المحكمة نفسها • فان عدالة المحكمة ان كانت موجودة فهى فى غنى عن تملقك ، وان لم تكن موجودة فلن يوجدها تملقك •**

* * *

١٥ — أولى خطوات الاقناع أن تكسب انتباه من تتحدث اليه•

فان لم تفعل فان بلاغتك وقوة حججك وأسـانيدك القانونيـة تذهب كلهـا هبـاء •

* * *

١٦ — احرص على ادخال حجتـك القوية الى الأذن غير منتظرة الاذن كما يقولون • لا تقـدم لها بقرع الطبول ، بل سقها فى الوقت المناسب ، عندما تتبين أن الآذان والقول مهيأة لقبولها •

* * *

١٧ — اهتم بالجانب المظلم من قضيتك أكثر من اهتمامك بالجانب المضيء • فالجانب السهل يتولى نفسه بنفسه •

* * *

١٨ — لا تحاول نفى ما لم يثبتـه خصمك فتستكمل بذلك الحلقة الناقصة من سلسلة أدلته •

* * *

١٩ — السباب ليس حجة أيا كان مصدره • والتوكيد ليس دليلا أيا كان قائله • والصوت المرتفع لا يحل اقناعا • انما يأتى الاقنـاع اذا صـدر من القلب • فانما تأتى قوة الرصاصـة من قوة البندقيـة التى تقذفها•

* * *

٢٠ — لا ينحصر فن المحامى فى اعداد أفضل الأسلحة ليستعملها فى المعركة ، بل فى معرفة كيف يستعملها وخاصة متى يستعملها •

* * *

٢١ — ساير قاضـيك فى طريقـة تفكيره هو ، لا فى الطريقة التى تعتقد أنه يجب أن يفكر بها ، فمهمتك أن تجعل القاضى يقتنع بحجتك ويحكم لك ، لا أن تبين للسامعين أنك مصيب وأن قاضيك مخطىء •

٢٢ — ابدأ مرافعتك دائما فى هدوء وتواضع • واسترسل فيهـا حتى تعد آذان القضاء لسماع صرخات غضبك أو استهجانك طبيعيـة وموضـوعية ، فـلا يستكثرها أحد ولا يستهجنها • أما الصراخ منذ البداية ، والصوت الغاضب قبل أن يدرك السامعون له سـببا ، فانه ينفرهم بدلا من أن يسترعى اهتمامهم •

* * *

٢٣ — من الخير أن تسأل نفسك من أين تبدأ مرافعتـك ، ولكن الأفضل أن تعرف متى وكيف تنتهى منها• فان الاطالة ضارة ،والتكرار أضر ، واملال القاضى أسوأ وقعا منهما •

* * *

٢٤ — يجب أن يكون الدفاع كاملا والا كان بلا جدوى• كالحرف الأبجدى لا قيمة له الا بالأحرف المكملة للكلمة •

* * *

٢٥ — القاضى ومحامى الخصم وممثل النيابة وشـهود الدعوى يخضعون جميعا للمحامى الملم بقضـيته • اذا خسر دعواه — كما لابد أن يحدث أحيانا — فانمـا يخسرها وهو مقتنع بأنه لم يضـعف أمام القاضى ، ولا تغلب عليه محامى الخصـم ، وانه انما خسر دعواه لأن العـدالة اقتضت ذلك ••• أو لسوء حظ موكله ••• ولكنه يستطيع أن يخرج من الجلسة رافعا رأسه ، راضيا عن نفسه ••• لأنه لم يقصر فى أداء واجبـه •

* * *

٢٦ — ابتعد عن الخطأ ، فالوقوع فيه سهل ، والتخلص منـه صـعب •

* * *

٢٧ — اذا تبـادل قضاتك الحديث أثناء مرافعتك ، فافترض أنهم

يتبادلون الرأى فى قضيتك • فلا تغضب ولا تظهر استياء بل توقف عن المرافعة ودعهم يصـــلوا الى رأى فى الحجة التى كنت تدلى بها ثم أعد عرضها مصقولة فى ثوب جديد •

٢٨ ــ الحجة المتكررة كالطعام الذى يعـــاد تسخينه كن طبيعيـــا لا تتواضع كبرا ولا تتكبر عجرفة • لا خضوع ولا استعلاء لا تكثر من الحركات • انك تجعل القـــاضى يلتفت الى حركاتك ولا يصـــغى الى حديثك •

ثانيا : كيفية قهر القلق عند المرافعة

ان الحقيقة الواضحة أنه مهما كتبت ومهما قرأ القـــارىء الكريم عن أسباب القلق فى الدعاوى وخاصة الجنائية فان ذلك لن يحل كثيرا من المشاكل النفسية عند نظر كل دعوى •

ولكن دعونى أوفر لحضراتكم بعض النقاط الأساسية التى يجب أن يكون عليها المحامى حتى يستطيع أن يتغلب على القلق الذى يسببه انشغاله على القضية •

١ ــ اسأل نفسك عن أسوأ الاحتمالات التى يمكن أن تحدث ثم هيىء نفسك ذهنيـــا لقبول أســـوأ الاحتمالات فاذا حدثت نسبة أقل فهـــذا أيسر •

٢ ــ لا تفكر فى بداية القضـــية كثيرا وتنشغل على نتيجتهـــا بل اعمل فالعمل هو خير سلاح للقلق فى هذه الحالة •

٣ ــ اذا حدثت نتيجة قضية غير متوقعـــة فارض بما قسمه الله لك وارض بما ليس منـــه بد •• وما تشـــاءون الا أن يشـــاء الله • وقـــدر الله وما شـــاء فعـــل وارادة الله فـــوق كـــل ارادة • وبالتـــالى اجعله فى حكم المـــاضى ولا تفكر فى المـــاضى فليست هناك

قوة بوسعها اعادة الماضى وانشر ذهنك بخواطر الطمأنينـــة والشجاعة وأن تتجنب القصاص من الخصوم فأنت مجرد وكيل •

٤ — استرح قبل أن تبـــدأ تلك القضـــية وتعلم كيف تسترخى وأنت تزاول عملك •

٥ — لا تجادل اذا كنت مخطئا واعلم أن خير السبيل لكسب جدال هى أن تتجنبه وسلم بخطئك اذا كنت مخطئا •

٦ — بالنسبة للموكلين كن مستمعا طيبا وشجع غيرك على الكلام عن نفسه وعن قضـــيته وأظهر اهتماما بالناس وابتسم فمن لايستطيع الابتسام لا يجوز أن يفتتح مكتبا للمحاماة واجعل الموكل يشعر بأهميته باسباغ التقدير والفت نظره الى أخطائه من طرف خفى •

٧ — قدر للقضية أسوأ احتمال تراه وأخبر به الموكل فاذا حدث أقل فلن يكون هناك أثر •

وفن الحديث الخاص مع رواد المكتب يكمن فى النقاط الآتية :

ابتسم تبتسم لك الدنيا

واجعل مصافحتك حارة

والصـــداقة رائدك

اذا لم تتفق فى الرأى فكن صبورا وأحب لأخيك ماتحبه لنفسك

فالتذرع بالفشل فرار من المسئولية

ولا تفقد روح الفكاهة وتذكر أن من لايستطيع الابتسام لايمكن أن يكون محاميا ناجحا •

ودع الشكوى وكن متفائلا •

كما يجب مواجهة الحقائق بصبر وشجاعة •

وارسم برنامجك وفقا لاتجاه مزاجك •

ويجب أن تنشد الاسترخاء دائما كما أن الارتواء الجنسى المشروع هو الطريق الطبيعى للراحة النفسية •

فلنحاول اذن أن نحدد الصفات الطيبة فى كل انسان نلقاه •

انس الملق وامنح تقديرك المخلص المنزه • كن مبذرا فى مديحك مسرفا فى تقديرك يدخر الناس كلماتك سنوات طوال حتى بعد أن تتناساها أنت •

ست طرق لكى تحبب الناس اليك :

١ — اظهر اهتماما بالناس •

٢ — ابتسم •

٣ — اذكر أن اسم الرجل هو أجمل وأحب الأسماء اليك •

٤ — كن متحدثا طيبا وشجع محدثك على الكلام عن نفسه « كن محدثا بارعا » •

٥ — تكلم فى يسر محدثك ويلذ له •

٦ — اسبغ التقدير على الشخص الآخر واجعله يشعر بالأهمية •

ان سر الصفات الناجحة أن تصغى باهتمام لمحدثك فلا شىء آخر يسره أكثر من ذلك • مستمع صبور عطوف •

الفصل الرابع

بعض مرافعات

النصف قرن الأولى من القضاء

جمعها حضرة صاحب العزة مصطفى حنفى بك [1]

قضية مقتل المرحوم بطرس غالى باشا

أمام محكمة الجنايات المشكلة تحت رياسة جناب المستر دلبروغلى وبحضور حضرات أمين بك على وعبد الحميد بك رضا مستشارين دور شهر أبريل سنة ١٩١٠

قطع من مرافعة حضرة صاحب السعادة عبد الخالق ثروت باشا النائب العمومى

ان الجناية المطروحة عليكم اليوم ليست من الجنايات العادية ، بل هى بدعة ارتج لها القطر بأكمله ، ابتدعها الوردانى فيه وكان الى اليوم طاهرا منها .

لم يكن من قصدى أن أطيل الكلام فى الجريمة من حيث ثبوت ارتكابها ، فان المتهم سجل على نفسه باقراره سواء أفى التحقيق أو أمام قاضى الاحالة أنه قتل المرحوم بطرس باشا عمدا بعد سبق اصرار

(١) عن الكتاب الذهبى ـ ص ١٩١ وما بعدها ـ المرجع السابق .

على القتل والترصد له ، ولكن الدفاع أسمعنا فى الجلسة الماضية ٣٣ شاهدا . سمعت شهادتهم وفكرت فيها فألفيتها تحوم من بعيد حول نقط يريد الدفاع أن يدرأ بها عن المتهم مسئولية القتل من جهة خاصة، ويخفف بها مسئوليته عن الجناية من جهة عامة .

فكان لابد لنا من الكلام عن هاتين المسألتين وان كنا لا نرى هذه الطريقة التى يسلكها الدفاع الا بعيدة جدا فى التأدية الى هذه الغاية .

وبعد أن تكلم سعادة النائب العمومى عن هاتين المسألتين باسهاب قال سعادته :

« ان الوردانى بجنايته قد عمد الى خرق حرية القوانين السماوية والبشرية . عمد الى قتل النفس التى حرم الله قتلها . عمد الى ازهاق روح بريئة من غير ذنب . عمد الى حرمان انسان من أقدس حق له فى هذه الدنيا . عمد الى حرمان عيلة من معيلها وأمة من رجلها وحكومة من رئيسها . عمد ، وأطاع هواه ، وأطلق رصاصته ، فماذا جرى ؟

فانظروا يا حضرات القضاة كم أساء الوردانى بجنايته الى هذا البلد الأمين الأسيف ! فماذا جنت عليه مصر ؟ ولماذا هو يضرها كل هذا الضرر ؟ لعله يدلى بخدمة الوطن .

ان الوطنية التى يدعى المتهم الدفاع عنها بهذا السلاح المسموم ابراء من مثل هذا المنكر .

ان الوطنية الصحيحة لا تحل فى قلب ملأته مبادىء تستحل اغتيال النفس . ان مثل هذه المبادىء مقوضة لكل اجتماع .

فماذا يكن حال أمة اذا كانت حياة أولى الأمر فيها رهينة حكم متهوس يبيت ليله فيضطرب نومه وتكثر هواجسه ، فيصبح صباحه ، ويحمل سلاحه ، يغشاهم فى دار أعمالهم فيسقيهم كأس المنون .

ثم استطرد سعادة النائب العام فى الكلام الى أن قال :

ماذا يريد الوردانى ؟ أيريد ألا يكون حكم ولا حاكم ؟ أيريد أن تكون الفوضى بعد النظام ؟ أيريد ضرا ودمارا عاجلين ؟

هذه ، يا حضرات القضـــاة ، الغاية التى استحل الوردانى من أجلها قتل النفوس ليصل بوطنه اليها خدمة له ومحبة فيه •

هذه هى الغاية التى ظنها شفيعا له لديكم ، وسببا لعطفكم عليه وشفقتكم به •

ان جناية الوردانى لأشد ضررا ألف مرة من جناية كل مجرم قاتل أو سارق أو قاطع طريق ، فان هؤلاء جنايتهم فردية وجناية الوردانى على أمته ووطنـــه • وهؤلاء يمكن الاحتراس منهم وتوقى أضرارهم، وهو يأخذ الناس فى مأمنهم غيلة وعلى غرة منهم وما لهم منه من واق•

ان كان الوردانى أراد بفعلته أن يخدم بلاده فلقد ساء طريقـــه الى هذه الخدمة• ان كان أراد أن يحييها من الجناية فلقد صدع كيانها صدعا ، وأضر بهـــا ضررا بالغا بتلطيخه صحيفتها بالدماء وقـــد كان أمامه لخدمتها طريق من طرق مشروعة •

كان فى وسعه أن يحارب خصمه بغير ذلك السلاح القاتل ، فان كان على حق خرج من هذا النضال بطلا شريفا سائرا به وبنفسه الى خدمة الوطن ، لا أن يلقى اليه تلك الرصاصات ليذهب به الى عدم يسير اليه قاتلا أثيما • بئست المبادىء مبادؤه ، ولعنـــة الله عليهـــا باسم الانسانية التى انتهك حرمتها ، والحرية التى خرق سياجها ، والوطن الذى جنى عليه •

ياحضرات القضاة : الآن بيدكم الأمر • ان هى الا كلمة تخرج

من أفواهكم لا تسألون عنها الا أمام ضـمائركم وأمام الله سـبحانه وتعالى ، وبها تبددون ظلمات أحاطت بالبلاد ، وبها تستأصلون جرثومة خبيثة يخشى منها على عقول النشء • وأنا على يقين من أنكم ستجيبون صوت الحق والعدل •

فالانسانية تستصرخكم لما أصابها من جراء هذه الجناية الفظيعة فتحكمون بالاعدام على هذا الجانى •

دفـــاع

حضرة الأستاذ محمود بك أبو النصر

لما دعينا للدفاع فى هذه القضـية تمثل لنـا ذلك الحادث الجلل بنتائجه وأسبابه ، فشعرنا بعظم المسئولية التىاحتملناها أمام ضمائرنا وأمام الله والنـاس • نعم ان المسئوليـة كبرى ماكنـا لنتقـدم الى احتمالها لولا ثقتنـا بعدل القضاء واستقلاله •

حدث ذلك الحادث الأليم فعمت الدهشـة البـلاد ، واستحكم الذهول فى بعض العقول ، فتسرع من تسرع الى اتخاذه مثارا لأحقاد وضغائن يشهد الله أن لا وجود لها الا فى بيداء الخيال والوهم •

نعم سمعنا ، والأسف ملء قلوبنا ، سمعنا صـيحة كانت أشـبه بأصـوات الانتقام منهـا بتكييف الحالة الواقعة • أوشك الجو بهذه الصيحة أن يزداد ظلاما فتشابه الأمـر ، واتسعت دائرة المسئوليـة الجنائية عن مركزها الحقيقى • أخذ البرىء بغير البرىء ثم سـيقوا جميعا الىالمحاكم فلم يلاقوا منعدل القضاء واستقلالهسوى ماتعلمون• وكان من نتـائج هـذا التهويل فى هذا الحادث والخروج به عن حـد المعقول وحقيقته الثابتـة أن قام بيننـا بالأمس ذلك الضيف الكريم يهرف بما لا يعرف • ليته وقف بتهجمه عنـد حـد البحث ـ خطأ أو

صــوابا ــ فى كنه ذلك المصاب العظيم ، ولكنه أجلس نفسه ظلما على منصة القضـــاء وأصدر حكمه فى قضيتنا كما يشاء (يقصد بذلك خطبة المستر روزفلت التى اتهم فيها الأمة بالتعصب الدينى) •

أجل يا حضرات المستشارين • لا مثل هذه الصيحة المنكرة ، ولا ماهو أشد وقعا منهــا ، واجد سبيلا الى نفوســكم الكبيرة وعقولكم الرزينة فى تقدير مسئولية الوردانى• ذلك الذى اختارته الأقدار ليكون حكمكم فى حادثته مظهرا جــديدا من مظاهر الاستقلال القضــائى فى محاكمنا الجنائية • اختارته ليكون حكمكم فى قضيته برهانا ساطعا على وجود تلك الضمانة الكبرى فى قضائكم المتعالى عن الشبهات • اختارته ليكون حكمكم فى هــذه الظروف اثباتا شــافيا للنــاس عن معنى ذلك الثبــات الكامل ، والسكينــة المطلقــة ، والتجرد عن كل شىء الا عن النظر الحر فى تلك الحادثة مع رعاية الظروف والأسباب فلا تهزمكم صيحة ، ولا تؤثر فى رأيكم ضوضاء •

ثم أخذ الأســتاذ أبو النصر يتكلم عن ســبق الاصرار والسبب الذى دفع المتهم الى ارتكاب جرمه • وبعد أن انتهى من كل ذلك تقدم الى المحكمة بطلب الرحمة • ومما قاله فى ذلك :

لا أريد بالرحمة أن تتجاوزوا للمتهم عن شىء مما يستحقه عدلا، لأنى لا أقول ان الرحمة فوق العــدل ، بل أقول ان الرحمة هىأقصى وأسمى مرتبــة من مراتب العدل • فاذا طلبتها فانما أطلب العدل فى أرقى معانيــه •

أطلب العــدل المجرد من كل مؤثر • ذلك العــدل الــذى يقضى بقصاصين ، مختلفين اختلافا كبيرا ، على شخصين ارتكبا جريمة واحدة فى ظروف متشابهة لمــا يتبين فيهما من اختــلاف الطبــائع ، وتغــاير المقاصد وتباين الأسباب •

انى على ثقة تامة من أنكم ستقدرون لهذا المتهم من زمان العقوبة ما يصلح تقـديره لمثله • وبديهى لديكم أن قليل العقوبة عنده يعادل كثيرا عند غيره من المجرمين العاديين •

رب ساعة واحدة فى السجن تعادل شـهرا أو أياما • العقوبات مقدورة ، وأرقاها فى سلم العـدل ما روعيت فيه أحوال الارادة صحة واعتلالا وقوة وضعفا ، وهو مالا سبيل اليه الا باعتبـار المشخصات الذاتيـة لكل متهم ، والظروف الخصوصـية لكل تهمـة • فاذا اقتضى العدل أن تعاقبوا فلتكن العقوبة على هذا المبدأ القويم •

فاحكموا وسيحفظ التاريخ حكمكم فى هذه القضية ليكون آية من آيات العدل • فلا تنسوا للمتهم ما قـدمته من الاعتبـارات ، وعلى الخصوص تحرر عمله عن سبق الاصرار ، وتغلب الأسباب على ارادته وتأثيرها فى مزاجه العصبى الى الحد الذى عرفناه •

دفـــاع

حضرة الأستاذ أحمد لطفى بك المحامى

ترافع الأستاذ أحمد بك لطفى عن المتهم وطلب الى المحكمة اعتبار الواقعة مجرد شروع فى قتل لأن الوفاة لم تنشأ عن الاصـابات التى أحدثها به المتهم • وكذلك طلب أن يوكل الى طبيب اختصاصى فحص المتهم لتقـدير مسئوليته عن الجريمة التى ثبتت عليه • وبعد الانتهاء من دفاعه خاطب المتهم بما يأتى :

أما أنت أيها المتهم

فقد همت بحب بلادك حتى أنساك ذلك الهيام كل شىء حولك ،

أنساك واجبا مقدسا هو الرأفة بأختك الصغيرة وأمك الحزينة فتركتهما يبكيان هذا الشاب الغض ، تركتهما يتقلبان على جمر الغضا • تركتهما يقلبان الطرف حولهما فلا يجـدان غير منزل مقفر غاب عنـه عائله • تركتهما على ألا تعود اليهما وأنت تعلم أنهما لايطيقـان صـبرا على فراقك لحظة واحدة فأنت أملهما ورجاؤهما •

دفعك حب بلادك الى نسيان هذا الواجب ، وحجب عنك كل شيء غير وطنك وأمتك ، فلم تعد تفكر فى تلك الوالدة البائسة وهذه الزهرة اليانعة ، ولا فيما سينزل بهما من الحزن والشقاء بسبب ما أقـدمت عليـه •

ونسيت كل أملك فى هـذه الحيـاة ، وقلت ان السعادة فى حب الوطن وخدمة البلاد ، واعتقدت أن الوسيلة الوحيـدة للقيـام بهذه الخدمة هى تضحية حياتك ، أى أعز شيء لديك وادى أختك ووالدتك، فأقدمت على ما أقـدمت راضيا بالموت لا مكرها ، ولا حبا فى الظهور• أقدمت وأنت عالم أن أقل ما يصيبك هو فقدان حريتك ، ففى سـبيل حرية أمتك بعت حريتك بثمن غال •

فاعلم اذا أيها الشاب أنه اذا تشدد معك قضاتك — ولا أخالهم الا راحميك — فذلك لأنهم خدمة القانون وهـذا هو السلاح المسلول فى يد العدالة والحرية ، واذا لم ينصفوك — ولا أظنهم الا منصفيك — فقد أنصفك ذلك العـالم الذى يرى أنك لم ترتكب ما ارتكبته بغيـة الاجرام ولكن باعتقاد أنك تخدم بلادك ، وسـواء وافق اعتقـادك الحقيقة أو خالفها فتلك مسألة سيحكم التاريخ فيهـا • وان هنـاك حقيقة عرفها قضـاتك وشهد بها النـاس وهى أنك لست مجرما سفاكا للدماء ، ولا فوضويا من مبادئه الفتك ببنى جنسه ، ولا متعصبا دينيا خالته كراهية من يدين بغير دينـه • انمـا أنت مغـرم ببلدك ، هائم بوطنك ، فليكن مصيرك أعمـاق السـجن أو جـدران المستشفى فان

صورتك فى البعد والقرب مرسومة على قلوب أهلك وأصدقائك • وتقبل حكم قضائك باطمئنان واذهب الى مقرك بأمان •

مرافعـــة

حضرة الأستاذ ابراهيم الهلباوى بك

بعد أن ترافع الأستاذ الهلباوى بك فى القضية وبين الظروف التى ارتكب فيها الحادث وحالة المتهم العصبية ختم مرافعته بالكلمة الآتية :

خدمت نحو الخمسة والعشرين عاما محاميا ، ولم يخطر ببـــالى يوما أن أسأل أو أقرأ سبب اختيار الرداء الأسود حلة رسمية للمحامى الذى يتشرف بالدفاع بين يدى القضـــاء ، ولا سبب انتخـــاب اللون الأخضر للوسام الذى تزان به صدور من عهد اليهم اصـــدار الأحكام النهائيـــة •

أما الآن وقـــد أبعدت عن قلبى هذه القضية كل راحة ، وجعلتنى مرآة لتلك القلوب المتفطرة كأم المتهم وشقيقته وباقى أهله ، قلت ان كان مختار هذه الألوان أراد باللون الأسود رمز الحداد والمصائب للمحامى الذى يمثل القـــائم هو بالدفاع عنه ، وباللون الأخضر الذى يتحلى به صـــدر القاضى ، الرمز الى الطاووس ذى الريش الأخضر وهو مثـــال ملائكة الرحمة ، فنعم الاختيار •

كأننا نحن ، هنـــا فى هذه القاعة ، أمام أولئك القضـــاة المشبهين بملائكة الرحمة على ســـطح هـــذه الأرض ، نقوم — على نوع ما — بمأمورية شبيهة بمأمورية أولئك الأحبـــار فى هياكلهم الذين اتخـــذوا مثلنـــا ثياب الحداد وهم يتضرعون الى مبدع السموات والأرض بأن يفيض على الأرواح الذاهبـــة الى دار الخلود سحب رحمته وغفرانه•

ونحن هنا نقول لكم انكم تذكرون أنه ليس دائما بمقدور لهذا الانسان الضعيف أن يحمى نفسه من الخطر والزلل، وأن يعيش معيشة الملائكة، فتقبلوا دعاءنا فى طلب الرحمة للأحيـاء كما يتقبلها من أقامكم حكما فى عباده ، والذى علمنا أنه كما أن من صـفاته العـدل فان من صـفاته الرحمة ، وعلمنا فوق هذا ان الرحمة فوق العدل .

الآن لى كلمتان أوجههما الى المتهم بين يدى القاضى : الأولى أنى اذا كنت قاسيا عليه فى نعتـه فلأنى خاضع لقانون ليس دائما — من سوء البخت — ملتئما فى أحكامه مع ما توصى به الذمة والضمير ، لأنه مضطر فى أحوال كثيرة — رعاية لسلامة المجتمع البشرى وصيانته — أن ينظر نظرا آخر فى تعريف الحل والحرام ، ونحن المحـامين أحق النـاس بالأدب والخضوع لهذا القانون . فاذا قبـل الدفاع عذرك أيها المتهم وعرضـه على قاضيك فعليـك أنت أيضـا أن تتقبل قبولا حسنا عذر الدفاع فيما خالفك فيـه من عقائدك السياسية . الثانية أنى اذا أنزلتك منزلة المجرمين العاديين وطلبت لك الرحمة والغفران ، فلأن ذلك واجب أيضا يقتضـيه الدفاع . ولكن اذا أبت نفسك أن تعيش بين السلاسل والأغلال ، وأن تعيش معاملا معاملة الأشـقياء وقطاع الطريق فارفع نفسك عن هـذا السبيل ، واقبـل نبـال الموت بقلب البواسل ، فالموت آت لاراد له ان لم يكن اليوم فغدا . اذهب الى لقاء الله الذى لا يرتبط الا بعدالته المجردة عن الظروف والزمان والمكان ، اذهب مودعا منـا بالقلوب والعبرات . اذهب فقـد يكون فى موتـك بقضاء البشر عظة لأمتك أكثر من حياتك . **اذهب فان قلوب العباد اذا ضاقت رحمتها عليك فرحمة الله واسعة .**

— ٢ —

مرافعـــة

حضرة صاحب السعادة عبد الخالق ثروت باشا
النـــائب العمومى
لدى المحـــاكم الأهليـــة

في قضية المؤامرة نمرة ٩١ جنايات سائرة الأزبكية سنة ١٩١٢
المتهم فيها امام واكد ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام
فى دور أغسطس سنة ١٩١٢

ان أول كلمة أفتتح بها مرافعتى اليوم هى حمـــد الله على وقاية البلاد من نكبة لم يشهد التاريخ مثلها .

امتدت منذ عامين يد أثيمة أودت بحياة كبير الوزارة المصرية اذ ذاك فأصـــابت بموته كبد الأمة المصرية فتناجزت عناصرها ، وتنافرت قلوبها ، وتمثلت فى الأقطار — بعد أن كانت مثال الهدو والطمأنينة — أمة هائجة مائجة ليس لأحد بينها اطمئنان على نفس ولا مال .

بلاء عظيم وخطب كبير ! ما كانت البـــلاد لتخلص من نتائجـــه المشئومة ، وعواقبه السيئة ، لولا ما أتاح الله لها من أمير رحيم برعاياه، محب لشعبه ، أخـــذ بحكمتـــه وعالى مقـــدرته يعمل بمعونة رجالـــه ومشيريه على تقويم ما كاد ينقض من دعائم ســـعادة البلاد ، وتجديد ما غشى سمعتها من السوء ، ومداواة ما أصابها من الانثلام .

بينما كان سيد البلاد حفظه الله يعمل على مداواة هـــذه الأدواء ليل نهـــار لا يعتريه فى ذلك ملل ، ولا تثنيـــه عنـــه مشقة ولا تعب ، حتى أخذت الأمة بفضل تلك الأجهـــاد الشريفـــة تتنسم نسيم الاتفاق

بعد الانشقاق ، والالتئام بعد الانقسام ، وأخذت بشائر الأعمال تبعث فى النفوس الآمال بتحسين الحال والاستقبال ، وأضحت الأمة تنمح بريق اليسر بعد العسر ، والفرج بعد الشدة كانت ابان ذلك تختمر من وراء ستار عزائم شر وخبث ، من ورائها كبير البلايا والمصائب .

نعم كانت هنـاك فئة من الأغرار المفتونين طـاشت أحلامهم ، وعميت بصائرهم وقلوبهم ، وخبثت نفوسـهم فلم يروا من النور الا ظلاما ، ومن اليسر الا عسرا ، ومن الخير الا شرا ، ومن النظـام الا ظلما ، ومن وجوب المحافظة على القانون الا استعبادا ورقا .

فئة عطلت عن التربية الصحيحة ، وتسممت عقولهم بشر المبادىء فلم يروا للبلاد — وهى فى طمأنينتها سائرة فى طريق سعادتها — خيرا من اراقة الدماء فيهـا أنهارا ، والايذاء بنفوس عالية غالية تدأب أبدا لخير أمتهم البريئة مما كانوا يفعلون .

ألم يروا خيرا من قتل كبار البلاد المخلصين لها ، خيـانة وجبنا ، واغتيال الأرواح الطاهرة المطمئنة ، خلسة وخسة . هؤلاء هم أولئـك المتهمون الماثلون أمامكم اليوم ليلقوا جزاء شرورهم ، وسوء ماكانوا يدبرون ، وان فى تاريخهم لعبرة .

ثم أخذ سـعادة النائب العـام يتكلم عن تاريخ حيـاة المتهمين وأخلاقهم وشعورهم نحو حكومة ذلك الوقت ، مستشهدا على ذلك بما كان يكتبه المتهمون . ثم أخذ فى سرد وقائع الدعوى وتكلم عن التطبيق القانونى ثم ختم مرافعته بما يأتى :

الآن يا حضرات المستشارين ، وقد قمت بواجبى فى هذه القضية من شرح أدوارها وتفصيل وقائعها وبيان أدلتهـا ، لم يبق الا كلمـة أوجهها اليكم خصيصا أنادى بها فيكم الحكمة والنظر البعيد .

أنادى الحكمة والنظر البعيد ولا أنسى أن فيكم معهما الرحمة والعدل •

كان لنجاة البلاد من كبرى الكوارث هزة حبور وضجة حمدا لله على دفعها •

ولكن عتم هذا الشعور ما أدركه الحكماء منا أن الداء الذى كنا نأمل أن أولى جراثيمه قد أتى عليها القضاء العدل من عامين ، قد ولد جراثيم أخرى هى فى الخطر مع الأولى سواء •

أدرك الحكماء منا ذلك ، وأدركه بعدهم الناس عامة فمائوا ذعرا ورعبا ، وحق لهم أن يذعروا من أن تصبح الأرواح الغالية تحت رحمة أغرار لا عقل ولا تربية •

ان أشد ما ينتاب بلادا من الفوضى والاضطراب أو يصاب حكامها وساستها فى طمأنينتهم على أرواحهم من جراء قيامهم بالواجب المفروض عليهم •

انى أخشى أن أزيد رعب الناس ان قلت ان الداء الذى نخشاه هو ذلك الخطر الجلل ، ولكن خير لنا أن نعلم من أنفسنا الآن ماقد نأسف على فوات معرفته يوم لاينفع الندم •

نعم خير لنا أن نعرف مقدار هذا الخطر الداهم ، فما أشد الحالة التى يصبح فيها الانسان رهين حكم متهوس قد يرى فى كلمة أو عمل، هما خير ما تقتضيه الظروف وتمليه الحكمة الصحيحة والعقل الراجح، مثار للقتل ومسوغا للاعدام •

اننا أمام تيار جارف ان لم نقف فى سبيله نزل بعقول سفهاء شبابنا الى منزلق فيه بلاء البلاد •

لقد بدأ هؤلاء الشبان يفكرون فى استباحة القتل واراقة الدماء تخلصا مما صور حمقهم من الشقاء قبل أن يفكروا فى الخلاص من جهالتهم التى هم فيها يعمهون .

ان هذه الأفكار الطائشة الخطرة كالسلاح فى يد المجنون الهائج، ان لم يعجل بنزعه منه قوة واقتدارا كانت العاقبة وبالا .

وعلى من هذا الواجب الخطير الشريف ؟

انه عليكم الآن يا حضرات المستشارين .

امحوا هذه الأفكار الخطرة ، وانزعوا هذا السلاح القاتل .

انزعوه من أيدى هؤلاء المفتونين قبل أن يصيب البلاد شره المستطير .

انزعوه بحكم ترضاه الحكمة وأصالة الرأى .

انكم بذلك لاتكسفون الرحمة والعدل ، بل تزيدونهما رواء وجمالا .

أليس من الرحمة والعدل أن تحموا أرواح الأبرياء ؟

أليس من الرحمة والعدل أن تبعثوا الطمأنينة فى القلوب الواجفة ؟

أليس من الرحمة والعدل أن ترحموا صغارا كالغصون الرطبة أوشكت أن تلتوى على الشر تقليدا أعمى للمتهمين وأمثالهم ؟

قد أجهدت نفسى فى هذه القضية حتى أطمأن ضميرى واقتنع بأن من وضع القانون يده عليهم هم الجناة العاتون ، فقدمتهم للقضاء العادل لينالوا جزاء شرورهم وسوء ماكانوا يدبرون .

قدمتهم وأنا راج أن ما اقتنعت به بحق فى اجرامهم سيقنع ضمائركم بعد الروية والنظر الصحيح .

قدمتهم وأنا مؤمل أنكم ستقفون حيـــال شرور كثيرة وتردون عن البلاد بؤسا وشقاء كان المتهمون مجلبة له •

أنتم يا حضرات المستشارين من خيرة أبناء البلاد وأعرف الناس بأحوالنا وأدوائنا ، فزنوا نتائج ما كان المتهمون مقدمين عليه •

زنوا نتـــائج ذلك ونتائج حكم حكيم يمحو هذا السوء ، ويقينـــا شر ماكاد يدهمنا ، وما نحن منه موجسون •

زنوا ذلك وعلموا صغار الأحلام والطائشين أن اللعب بالنار غيـه أذى وآلام وحرق وسقام •

ان هى الا كلمة تنطقون بها ترجو الأمة أن يكون من ورائها عبرة كبرى لأمثال هؤلاء المتهمين فلا تقوم لهم من بعدها قائمة •

قد كان شديدا علينـــا يوم أن جر على البلاد ما فعله السفهاء من ضرورة سن قانون الاتفاقات الجنائية • ذلك القانون الاستثنائى الذى فى وجوده مسبة على أمن الديار ، وحجة قائمة على أننا دائمـــا تحت خطر الاضطراب والهياج •

كان ذلك علينـــا يوما عصيبا ، لن يهون شـــقاءه ويخفف من رزئه الا الأمل فى ألا يشهد المستقبل ذلك اليوم الذى تمس فيه الحاجة الى العمل به •

كم كنا نؤمل ألا يأتى ذلك اليوم الكريه ، ولكنه أتى على أشـــنع مانكره وأبشع ما كنا نخاف •

أتى ذلك اليوم العصيب ، وتوافق هؤلاء الأشرار على قتل رؤوس البلاد وحماتها ، وهل بعد ذلك من مصيبة ؟

توافقوا على ارتكاب هذه الجريمة الهائلة التى لا يمكن أن ينطبق هاذ القانون على جريمة أفظع منها ٠

أن كان شديدا علينا أن يوجد بين قوانينا مثل هذا القانون فاننـــا ــ بعد أن قدر علينـــا أن تقع هذه الجريمة فى ديارنا ــ لا مناص لنـــا من الاعتراف الآن بأنه السلاح الوحيد الذى نستأصل به اليوم هـــذه الجرثومة الفاسدة ٠

نعم هو سلاحنا الوحيد فى ذلك قد وضعناه فى أيديكم نسألكم أن تصرعوا به هذا الشر الذى بدت نواجذه وكشر عن أنيابه ٠

أصرعوه بأشد مافى القانون الذى بيدكم ٠

ليس فى ذلك من قسوة ولا تحيف فمـــا أشـــد مانحن فيـــه من الظروف !!

— ٣ —

قضية اغتيال المأسوف عليه السير لى ستاك باشا سردار الجيش المصرى والمتهم فيها عبد الفتاح عنايت وآخرون أمام محكمة جنايات مصر المشكلة بریاسة حضرة صاحب السعادة أحمد عرفان باشا وعضوية كل من المستر كرشو ومحمد مظهر بك
فى دور شهر مايو سنة ١٩٢٥

مرافعة

حضرة صاحب السعادة محمد طاهر نور باشا
النائب العمومى

قبل أن أشرح لحضراتكم وقائع هذه الحادثة المؤلمة التى لم يشهد تاريخ الحوادث الجنائية فى مصر مثلها ، أكرر أسف الأمة على مصابها فى قائد جيشها الذى قتل من أيد أثيمة وهو قائم بخدمة مصر التى لاتنسى له خدمته كما لا تنسى جميل كل من أحسن عملا فيها .

نعم قد جزعت الأمة لمصابها فى قائد جيشها ، لجناية ارتكبها فئة من الأغرار المفتونين الذين طاشت أحلامهم ، وعميت بصائرهم فخرجوا على ارادة أمتهم ، وانتحلوا لأنفسهم سلطة القضاء فى مهام لم يناطوا بها . جزعت لهذه الحادثة جزعا بادى الأثر ، فقد أظهرت مصر من أقصائها الى أقصائها اشمئزازا ونفورا أوحت بهما عاطفة صميمة كاملة فى نفوس هذا الشعب الذى يأبى أن يحقق آماله الشريفة الا بالوسائل المشروعة .

استفظعت الأمة هذا الجرم واستنكرته ، واشترك فى هذا

الاستنكار والاســتفظاع الصغير والكبير ، وعلى رأس الجميع مولانا المعظم جلالة الملك حفظه الله •

ان مصر أم الحضارة والمدنية قديما ، والتى لا تنكر منزلتهـا فى عالم العلم والحضارة حديثا •

مصر التى يضرب بحسن ضيافتها الأمثال وشـعارها (أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا) •

مصر ، مثال الهدوء والطمأنينـة ، قـد تمثلت فى البلاد الأخرى بسبب هذه الكارثة والحوادث السابقة عليها أمة هائجة ليس لأحد فيها اطمئنان على نفس أو مال ، حيث قال عنها بعض الصحف الأجنبيـة : « ان من الصعب الاعتقاد بأن أى أسف أو اغتذار أو تعويض يعوض عن اعتداء من شأنه أن ينزل مقام مصر الدولى الى منزلة أمة نصـف متمدينة ، فانه ليس من المحتمل أن تنظر الأمم الأخرى ذات المصالح فى مصر نظرة التساهل الى هذا الاعتداء » • وألقت صحف أخرى تبعة هذه الجناية على الشعب المصرى الذى تأصلت فى نفسه العقيدة الدينية وهى تحرم قتل النفس وتنهى عنه ، والذى يعرف حق المعرفة أن وسائل العنف والاجرام أكبر جناية على الوطن •

ماخلت بلاد من المغتـالين ومن حوادث الاغتيـال • وقـد وقع الاجرام على المصريين ذاتهم قبل أن يقع على سواهم ، وكنا نأمل أن أولى جراثيمه قـد يأتى عليها القضـاء العـادل ، ولكنها مع الأسف الشديد قـد ولدت جراثيم أخرى أشد خطرا وأعظم هولا جرت على البلاد شرورا كثيرة ، أضرت بسمعتها ، وأورثتها من المشكلات والخسائر مايقتضى اضـناء العقول واجهـاد القوى زمانا طويلا لتلافيـه ودرء عواقبـه •

هذه الجراثيم الخطرة التى تولدت عن الجرثومة الأولى كان سببها

افلات بعض الجناة من يد العدالة ، فكانوا حربا على البـــلاد هم ومن كانوا على شاكلتهم من المتهوسين ضعيفى النفوس أمثالهم ، فاختاروا طريقا لايجدون فى مصر من يوافقهم عليها أو يجاريهم فيها .

انحدرت هذه النفوس الضعيفة فى مهاوى الجريمة والاثم بسبب تلبد الجو السياسى ، ورأوا أن وسائل العنفوالاجرام بالخيانة والجبن تخدم البلاد وتنيلها أمنيتهـا ، وفاتهم أن العنف على مختلف صــوره وأشكاله لا يمكن أن يجر على مصر وقضيتها الا الضرر والفساد ، ولم نسمع فى تاريخ أى أمة ــ حالها كحالنا ــ أن هذه الوسائل الاجرامية أنالتها أمنيتها .

فاتهم أن أشد ماينتاب البلاد من الفوضى والاضطراب أن يصبح الأمر فيهـا بيــد فئــة من المفتونين اختلسوا لأنفسهم الحق فى اقامة أنفسهم مقام الحكم والمنفذ ، فى أمور لا يكون الحكم فيهــا الا للأمة بأسرهـا .

فاتهم أن بلادا يصبح فيها الانسان رهين حكم المتهوسين لاتقوم ولن تقوم لها قائمة حتى يترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

فات هؤلاء الأغرار أن الاستقلال لايكفى لصوننا ورفع مقامنا ، بل يجب أن نعرف كيف نصون استغلالنا . فبنشر التعاليم واعلاء شأن الأخلاق والفضائل ، وتوثيق عرى الاتحاد بين أبناء الأمة ، نتمكن من صيانة استقلالنا ونتبوأ المكان اللائق بنا بين الأمم المتمدينة .

وبعد أن شرح النائب العمومى وقائع الدعوى ، وأتى على تاريخ حياة المتهمين ، وكيف توصل المحققون الى معرفتهم ، والأدلة التىقامت عليهم قال فى ختام مرافعته :

قد شرحت لحضراتكم أدوار هذه القضية ، وفصلت وقائعها ، وقد

أجهدت نفسى فيها حرصا على العدل وعلى سمعة البلاد كما قدمت .

وقد وضعت العدالة يدها على من عاثوا فى الأرض فسادا . عبثوا بالقانون لعواطف شريرة غلت فى صدورهم فأصمتهم عن صوت العقل، وأعمتهم عن نور الحق .

لقد اطمأن ضميرى واقتنع بأن من قدمتهم للقضاء العادل لينالوا جزاء شرورهم هم الجناة السفاكون ، وأرجو أن ما اقتنعت به ، بحق، سيقنع ضمائركم فتمحون هذه الأخطار الخطرة ، وتردون عن البلاد بؤسا وشقاء كان المتهمون مجلبة له .

نحن الآن ، يا حضرات المستشارين ، أمام خطر داهم ان لم نقف فى سبيله سرنا الى الهاوية .

فعلى حضراتكم أولا ، ثم على كل مصرى خبر الحياة ، وعلى الأخص قادة الأفكار فيها ، واجب خطير شريف ، ان الامة المصرية تمقت بطبيعتها الاعتداء وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، حانقة أشد الحنق على هذه الفئة الضالة التى اتخذت سفك الدماء صناعة ووسيلة، ونرجو أن يكون من وراء حكمكم العادل عبرة وذكرى لأمثال هؤلاء المتهمين حتى لايعود صغار الأحلام والطائشون الى اللعب بالنار . ولكن هذا العلاج وحده لايكفى لاستئصال المرض من أساسه .

نعم ان قصاص القضاء العادل سيعيد الى البلاد حظا وافرا من السكينة يمكنها من أن تسير فى طريق التقدم والارتقاء — ذلك الطريق الطويل الكثير العثرات ، فاذا ماسرنا بحكمة وأصالة رأى قطعنا الطريق فى وقت قصير قضى سوانا فى اجتيازه وقطعه قرونا . والحكمة تقضى بالقضاء على هذا المرض الذى وان كان محصورا الآن فى فئة من الأغرار ضعيفى العقول الا أنه يخشى أن تسرى عدواه الى شبابنا

الناهض الذى تفخر به البلاد ، ولها فيه رجاء عظيم ، يخشى أن تسرى اليه هذه العدوى فتلتوى هذه الغصون الرطبـــة على الشر • وهنـــاك الطامة الكبرى •

وها هى نصيحة جلالة المليك المحبوب الساهر على ســعادة بلاده والعامل على اعلاء شأنها مسطورة فى خطـــاب العرش يجب أن تكون منقوشة فى صدر كل مصر لما فيها من العلاج الشافى •

الآن ، يا حضرات المستشارين ، قد قمت بواجبى فى هذه القضية فأطلب منكم أن تستأصلوا اليوم هذه الجرثومة الفاســدة بأشــد مافى القانون ، فليس فى ذلك من قسوة اذ نحن فى ظروف شــديدة توجب ذلك •

دفـــاع

حضرة الأستاذ الهلباوى بك عن شفيق منصور

قبلنا هذه المأمورية القاسية ، مأمورية أن نكون لسان حال هؤلاء التعساء ، ونحن نعتقد أننـــا أمام محكمة تصم آذانهـــا عن كل ماهو خارج عن موضوع الدعوى • تقـــدر ظروف الاتهام وظروف الحادث والأدلة كما تقدرها فى القضايا الأخرى • هذا رجاء زاد تحققا عنـــدما أعلن سعادة الرئيس فى جلسة أول أمس أن هذه المحكمة لا تعنى بشىء من السياسة وانها تقصر نظرها على المسائل العادية كما تنظر الى بقية القضايا • زدنا ايمانا بأنها تحقق العدل فتعاقب بقدر الجرم ، وتبرىء من تعتقد فيهم البراءة •

نعتقد هذا • ولكن ، ياحضرات المستشارين ، الظروف التى أثرت فى هذه القضية ، والنتائج التعسة التى لحقت البـــلاد ، من المستحيل

ـــ ونحن نؤدى هذه المأمورية ـــ ألا نتأثر بهـــا • ولكن هذا التأثر يجب أن يقف عند حـــد ، **هو ما يعنى القاضى عندما يقدر أسباب الجريمة ، وعندما يقدر النتـــائج التى ترتبت على الجريمة ، وعنـــدما يقدر حالة المتهم وتربيته • تلك هى الأركان الأربعة التىنعتقد أنها ستكون بحسب القانون أساس بحثنا فنقف عندها •**

سعادة النائب العام بدأ مرافعته بأن وصف شفيق منصـــور بأنه زعيم العصـــابة التى ارتكبت هذه الجريمة • ونحن مع اعترافنا بحسن تقـــديره ، وبالنتـــائج الباهرة التى وفق اليها فى تحقيق هذه القضية نستسمحه فى أننا نخالفه فى هذا •

ثم أخذ حضرته يشرح موقف شفيق منصور من التهمة كشريك فى الجناية ويتكلم عن التطبيق القانونى بالنسبة له • ثم قال :

عرضت على حضراتكم أنكم الآن تعالجون مرضى أصيبوا بجنون الوطنيـــة • وأريد أن أتكلم عن شيوع هذه الجرائم ، وهو يدعو أحيانا الى التشدد فى العقوبة ، وهو يدعو أحيانا الى التلطف فيها •

فالجريمة التى وقعت والتى أخذ بعض الجرائد الانجليزية ينـــدد بها علينا ، والتى أنتجت الانذار البريطـــانى الذى يقول انا لا نستحق من أجلها أن نكون بين الأمم المتحضرة ، هـــذه الجريمـــة من واردات أوروبا •

ان أوروبا التى تمن علينا فى كثير من الأحيان بأن مانحن فيه من حضارة هو من ناحيتها ، يجب أن تقبل أيضا ، الى حد ما ، أن الجرم السياسى هو من ناحيتها أيضا • فلم يكن الجرم السياسى موطنه هذه البلاد أبدا ، بل لقـــد أتى مرض القتل السياسى من الغرب مع مرض الزهرى تماما • يجب أن تقبل أوروبا هذا أيضا ، فهى ملوثة فى جميع أرجائها بمثل هذه الجرائم ، وبأفظع منها •

أكبر صيحة نرفعها فى وجه معلمتنـــا أوروبا أن ٩٠ فى المائة ممن جروا فى هذا السبيل هم الذين طوحت بهم المقادير وتعلموا فى ربوعها، تلك جناية خلقية ، لا غربية ولا شرقية .

نريد استئصال هذه الجراثيم . القاضى مهما كان لديه من الوسائل لايستطيع القضاء على الجرائم . أحسن علاج أن تعيش الأمم خاضعة للنظام . اعدام غلامين أو خمسة أو ستة مثل هؤلاء السفهاء لم يعمل فينا على اصـــلاح الداء . انمـــا يرجع الداء الى أن الأمم ينبغى أن تعيش فيما بينها محترمة لقواعد النظام .

فمعظم العلماء يميلون الآن ، أيضا فى أوروبا التى نتعلم عنهـــا ، الى نبذ عقوبة الاعدام . فاليكم ، ولو أنى أمام محكمة فى أمة صغيرة غير معروف للغرب أنهـــا تعطى حكما وأمثلة العدل — ولكن ليس للعدل وطن ولا للحكمة دار — اذا استطعت أن أقـــدم بين يديكم أن هـــذه العقـــوبة علاج خطير تنفر منـــه النفس الا فى الأوقات الخطرة فانى أستطيع أن أقول صـــونوا الهيئة الاجتماعية من خطر هؤلاء السفهاء. انتفعوا من قوة هؤلاء الشبان فقد ينفعون اذا تابوا ، وقـــد تصـــاح المقـــادير من أمرهم . وخصوصا وأن عقوبة الجرائم السياسية مبنية دائما على خطأ فى التقدير . هؤلاء البغاة يذكرون أنهم ارتكبوا الجريمة بحسن نيـــة . هم كالمجنون الذى يتوهم خوفه من البرىء فيقتله . فى عرفهم هو قصـــد الخير . أنا لا أطلب منكم أن تحترموا هذا ، وانما وأنتم تزنون قـــدر العقوبة عليكم أن تزنوها بقدر فكر الجانى . أعفى القانون القادم من عقوبة الاعدام لأنه عرف أنه لايقدر تمام التقـــدير الظروف كلها .

هم مرضى . عرضوا على طبيب ينظر فى أمرهم دون غل ولا حقد. أنتم تعالجون مرضى الأرواح كما يعالج الطبيب مرضى الأجسام .

ومن أجل هذا أستطيع أن أقول ان هـؤلاء المجرمين يستحقون عـدلكم •

هذه الدار تمثل رحمة الله فى الأرض فأطلبها منكم لهؤلاء الأغرار•

هناك سبب أتضرع اليكم أيضا بأن يكون سبب رحمـة • هـذه الجريمة كان يرمى خطرها الى ايذاء العـلاقة بين مصر وانجلترا فكان مالا بد منه ، أن تتدخل السياسة الانجليزية • وقد تدخلت ، واحتملت مصر طرا أن تكفر عن هـذه الجريمة • دفعت تعويضا لا يقل عن نصف مليون جنيه • فهؤلاء الأغرار الأشرار حملونا كل هذا المصـاب • لهم الحق أن يقولوا لكم ان سعادة النائب العام قال (ولكم فى القصـاص حياة يا أولى الألباب) لكن حكمة الله يجب ألا تنسى •

اتفقت كلمة الأئمة على أن دفع الدية ينفى توقيع العقوبة • وقـد دفعت مصر الدية فأرجو أن تدخلوا ذلك فى اعتباركم •

فأرجو أن يعرف الانجليز أنا أمة تعرف الجميل وتعرف الرحمـة فنرجو ألا يؤاخذونا بما فعل السفهاء منا •

قيل لكم أمس ان هذه هى القضية الأولى من نوعها التى تعرض على القضاء المصرى ، وأنا أعتقد أن عودة القضـاء فيهـا الى نظامه العادى قـد جعلتها بين أيدى قضاة ممن تتشرف بهم الأمم فيما يتعلق بصيانة المصالح ، فأؤكد لكم أن الطمأنينة قد عادت فى كثير من البلاد •

لا أقول ان الانجليز غير عادلين ففخر الأمة الانجليزية عدالتها • لكن اذا اعتز المصرى بعودة قضاته الى النظر فى أموره كلها فانما هذا ترضية لشعوره واحساسه بالعبء الذى يلقى على عاتقه •

ياحضرات المستشارين : أهل المتهمين جميعا يتقدمون لكم طالبين الرحمة مع اعترافهم بما حدث •

دفـــاع

حضرة الأستاذ وهيب دوس عن شفيق منصور

يا حضرات المستشارين :

فرض القانون — فيما فرض ضمانا لحسن سياسة القضاء واقامة العدل بين الناس — أن لا يتقدم متهم أمام هيكل قضـائكم الجنائى دون أن يرافقه فى هـذه المرحلة الأليمة محـام يتولى الدفاع عنه — محام يشترك معكم فى شرف خدمة القانون ويرتفع عن أوساط المتهمين الى الوسط الذى يفهم فيـه معنى العدالة كما تفهمونه أنتم ، ويقـدر أغراض الشارع التى وكل اليكم تحقيقها كما تقدرونها ، فيعرض عليكم المتهم كما يجب أن يعرض — بريئا أو مذنبا — ويصور لكم العواطف التى اجتاحت نفسه وعصفت بوجـدانه فأفقـدته أسمى مايتحلى به الانسان فى انسانيته ، وأرقى ما يطمح فى السمو اليه من فضيلة الرفق والتضحية والتسامح التى لو سادت لمـا اجترم مجـرم جرمه ، ولمـا قامت الحاجة لنظام القضاء .

أوجب القانون هـذا ، مع افتراض أن يكون بين هؤلاء المتهمين معترف أو متلبس بجريمته دون أن يحرم هـذا الفـريق من هـذه المساعدة ، أو يقلل من أهميتها بالنسبة له ، فكان قضاؤكم باطلا اذا لم يسترشد بدفاع المحامين الذين أصبحوا ركنا أساسيا فىالقضاء الجنائى تسعى الى تحقيق قيامه نفس السلطة التى تقيم الدعوى اذا قصر المتهم فى حق نفسه فلم يسع اليه أو حتى اذا رفضه هو رفضا باتا .

ألم يكن هذا الواجب عبثا ، ياحضرات المستشارين ، لأن المهمة التى شرفنا الشارع بتقليدنا اياها — مهمة الدفاع عنالمتهمين أمامكم — لاتقوى النفوس البشرية أن تجمع بينها وبين مهمة القضـاء . فنفس

القاضى وهو يجلس للقضاء عرضة لتنازع العوامل المختلفة ، والأهواء المتباينــة . بحكم مركزه يتبين مصاب المجنى عليه ، فيتصور حال من أصابهم الجانى بجنايتــه ليقدر مبلغ أثرها فيهم ليسترشــد بذلك فى حكمه . وعليه أيضا أن يتبين نفسية المتهم ، وما تفاعل فى نفســه من الأغراض والشهوات ، ومبلغ أثرها فى حسن تقــديره لما أقدم عليه . على القاضى أن يحيط بهذا وذاك وهو بغير شك عرضة للخطأ فى التقدير بين مختلف هــذه الأهواء والشهوات . ومن هنا وجدت الحاجــة الى من يقيم الدعوى ومن يدافع فيها ، ليتفرغ القاضى الى وزن مايعرض عليه دون اجهاد فى البحث عما يجب أن يعرض .

لهذا كان شرف المحاماة عظيما بهذا المكان الأسمى الذى حلت فيه تحت هذا النظام ، ولهذا جئنا ندافع أمامكم عن هؤلاء المتهمين تقديرا منا لهذا الشرف رغم ما أرجف به الكثيرون من تشويه جمال هذا الموقف الذى نقفه كمحامين نرتدى هــذا الرداء ونخلع فيــه عن أنفســنا كل رداء آخر قد يعطل من جهودنا فيما لو أعرناه التفاتنــا وجارينا هؤلاء المرجفين فى اعارته اعتبارنا .

يظن العامة ، ياحضرات المستشارين ، أن اعتراف المتهم باجترام الجرم يخفف عبء القضــاء على القــاضى ويهون له سبيل الحكم فى الدعوى .

لقد ضل العامة فى زعمهم . وأمامكم الفرصــة ســانحة لخــدمة العدالة بالقضاء على هذه الضلالة .

اذا أنكر المتهم وأقيمت عليه البينــة كان عمل القاضى هينــا فهو لا يتقيد الا بالعمل المادى ، وهذا قد أقيم عليه الدليل فــلا ينبغى الا توقيع العقاب فيوقعه القاضى وهــو قرير العين ، طيب النفس للخدمة التى أداها للمجتمع .

أما المتهم المعترف بجريمته فيتدم لقاضـيه وسريرته على كفيـه يبسطها أمامه مطالبـا اياه بأن يحل نفسه محله ، ويتصورها محوطة بظروفه ، وأن ينزل الى دركه فى الفهم وفى مبلغ أثر الحوادث فيه — يطالبه بكل هذا لأن القضاء لا يقوم الا بتفهم هذا جميعه . ومن أجل ذلك ترك لكم ذلك المدى الواسع بين أقصى العقوبة وأدناها . والمفروض فى جميع الأحوال أن الفعل المادى واحد ، ولا يجىء الفرق فى الحكم الا لاختلاف مايفهمه القاضى من جميع تلك العناصر المختلفة والأهواء المتباينـة .

لهذا كانت مأموريتكم ، يا حضرات المستشـارين ، فى حال المتهم المعترف أشق وأدق منها فى أى ظرف آخر . حتى فى حالة الجريمة التى يعتذر المتهم عنهـا باحدى شهوات النفس الأولية كالانتقـام والغيرة والسرقة للفاقة والغضب لعدم ضبط العواطف .

فاذا كان هذا هو حالكم فى تبين تلك الشهوات الأولية فكم يكون واجبكم أشق اذا كانت مقدمات الجريمة تشتبك فيها العواطف وتأخذ فيها الشهوات بعضها بأعناق بعض ، وتتناقض فيهـا الحالة النفسية للمتهم الواحد تناقضا لايتفق مع النتيجة على ظاهر الحال ، ولا يمكن فهمه الا بالجهد والعنت .

لهذا كان اشفاقى عظيما على نفسى ، وعلى حضرات زملائى الذين كلفوا بالدفاع فى هذه الدعوى عن المعترفين من المتهمين ، وكان اشفاقى أعظم على حضراتكم ، وفى أعناقكم مسئولية الحكم وعليكم وحـدكم تبعته ، وضمائركم بين ضلوعكم تستحثكم لتلمس قبس النور فى هـذا الظلام الحالك فلا تكادون تتبعونه حتى يختفى . وبدون هذا القبس لاتملكون الحكم ولا تذوقون طعم الراحة اذا أنتم حكمتم .

حضرات المستشارين : ستخلون الى أنفسكم اذا ما فرغنـا نحن

من القيـــام بواجبنا ، وستعرضون أمام خيالكم الجريمة بما أحاط بها من ظروف مفجعة ، وما ترتب عليها من نتائج بعيدة المدى قد يكون من أثرها تعطيل تقـــدم البلد أحقابا أو أجيالا • ستعرضون أمام خيالكم المجنى عليه عائدا من بلاده بعد أن قضى فيها شهور راحتـــه ، وتاركا وراءه اخوانا وخلانا على أمل لقائهم قريبا — عائـــدا ونفســـه مملوءة بالآمال فى المستقبل وقلبـــه مفعم بالمشروعات التى ينوى أن يخـــدم بهـــا وطنـــه •

وسيأتى حتما فى هذه الصـــورة خيال زوج ذلك الشهيد وفخرها واعتزازها بهذا الذى يمثل لها الرجولة الحقة ، وأملها فى أن يخلد لهـــا من الذكر الطيب ما يشتريه الناس بأرواحهم كاسبين • ستتمثلون هذا جميعـــه وغيره مما يعرض للمفكر عميق التفكير ، وتتصـــورون أن تلك الحياة النـــابضة وذلك الجسم القوى وتلك المواهب والآمال تتهدم فى لحظة واحدة ، فاذا بقـــائد الجيش لا يقوى على الكلام ، واذا بالموت يتسلل اليـــه برغم من أحاط به من أصـــدقاء وأحبـــاب ، واذا بالبرق تتجاوب أسلاكه بخبر الفاجعـــة ، واذا بالرجل المملوء حياة ونشاطـــا طالما ملأ بهما ميادين القتال رهين حفرة تضيق به ويضيق بها •

ياحضرات المستشارين : **اذا ما تعـــاقبت هذه الصـــور المفزعـــة أمامكم فثـــارت نفوسكم للحق ، وهمت بتوقيع العقـــاب على المجرم ، فتذكروا أنكم ورثتم أوليـــاء الدم فى نظام القضاء الحـــديث ، ولكن الارث انتقل اليكم بعد أن تجرد من عاطفة الغضب والانتقام — انتقل اليكم القصاص العدل ، القصاص الذى فيـــه الحياة •** فتذكروا هـــذا ولا تنسوا أن للمســـألة وجهـــا آخر يجب اســـتعراض صـــوره كذلك استعراضا دقيقا قبل أن تقولوا كلمتكم الأخـــيرة ، وبها تتعلق أرواح هؤلاء الأغرار •

ثم أخذ حضرة المحـــامى يترافع فى موضـــوع الدعوى ويشرح

للمحكمة المؤثرات التى دفعت هؤلاء المتهمين على ارتكاب جريمتهم الى أن قال فى ختام مرافعته :

تذكروا يا حضرات المستشارين اذا ما وضعتم القلم على القرطاس وقبل أن يجرى به قضاؤكم أن هؤلاء الشبان قضوا أعواما انغمسوا فيها فى الجريمة دون أن يكون لهم فى ذلك مصلحة .

تذكروا أن لهم عائلات يلبسها حكمكم السواد ، وأمهات وأخوات تخفق قلوبهن حنوا وعطفا ، وتجزع نفوسهن هلعا واشفاقا ، وان لهم عليكم دينا لا تملكون سداده اذا حم القضاء . خاطروا بأنفسهم وتعرضوا للموت قتلا أو حكما فى سبيل مصر بحسب معتقدهم ، والأعمال بالنيات ، وهذا دين يشغل ذمة كل مصرى ، عليكم فيه نصيبكم ، فلعلكم موفونه فى حكمكم باقالتهم من عثرتهم ، وانكم باذن الله لفاعلون .

مرافعـــة النيـــابة العمومية
فى قضية الجناية رقم ١٠٤ لسنة ١٩٢٦ الخاصة
بالاغتيـــالات السياســـية
فى دور شهر أبريل سنة ١٩٢٦

محكمـــة جنـــايات مصر

المشكلة برياسة المستر كرشو وعضوية حضرات كامل ابراهيم بك

وعلى عزب بك

مرافعـــــة

حضرة صاحب العزة مصطفى حنفى بك

رئيس نيـــابة الاستئناف

فى هذه القاعة ، ومن خمس عشرة سنة مضت، وقف حضرة صاحب الدولة عبدالخالق ثروت باشا النائب العمومى لذلك العهد وأحد المجنى عليهم فى قضـــية اليوم ليترافع فى أول اعتداء سياسى حدث فى هـــذه البلاد يوم أن أطلق الوردانى رصاصاته على صدر بطرس غالى باشا . فقال يصف الاجرام السياسى .

(وهنا ذكر حضرة رئيس النيابة العمومية بعض فقرات من مرافعة المرحوم عبـــد الخـــالق ثروت باشـــا فى قضـــية مقتل المرحوم بطرس غالى باشـــا) .

بمثل هذه الكلمات البليغة ، والنصائح الغالية التى صـــدرت عن رجل خبر الدهر ، وعرك الأيام ، خاطب النائب العام قضاته وهى كلمات

ان حقت فى أول اعتـــداء سياسى فهى أأحق اليوم بعد أن قضت مصر خمس عشرة سنة تئن من هـــذا الداء الوبيل ، وبعد أن تعدد ذلك النوع من الاعتداء حتى أقلق الذين يهمهم أمر هذه البلاد .

ومع أن المحكمة أجابت نداء النـــائب العام فقضت باعدام المتهم الا أن هـــذا العلاج لم يستأصل الداء تماما . فان كان الوردانى قد أعدم فقد بقى شفيق منصور ومن على شاكلته أحرارا طليقين يقتفون أثره ، ويعملون عمله ، وينشرون مبادئه الى أن انتهى بحادثة السردار تلك الحادثة الأليمة التى فجعت لهـــا الأمـــة والتى اصـــطدمت بآمال مصر ، بل لست مبالغـــا ان قلت لكم ان تلك الرصاصات الطائشة التى أطلقها المتهمون على السردار انما هى رصاصات صوبت الى صدر مصر .

وبعد أن أخـــذ رئيس النيابة العموميـــة فى سرد وقائع الدعوى ذاكرا تاريخ الاجرام السياسى فى مصر قال :

حضرات المستشارين :

الآن انتهى واجب مهنتى ، وبقى واجب وطنى . وان كانت هذه المهنة قـــد منعتنى فى الماضى أن أدلى برأيى فى هذه المسائل التى أقلقت البال أعواما طوالا ، فان هـــذه المهنة نفسها هى التى أوقفتنى اليوم هذا الموقف فأتاحت لى فرصة قلما تسنت مرة أخرى ، فمن الواجب ألا أتركها تمر دون أن أقول كلمة فى سبيل بلادى ، وقد لا أكون فى هـــذه الكلمة الا معبرا عن رأيى الخاص دون أن أمثل أحدا .

لقد ظل الاجرام السياسى فى مصر عهدا طويلا بدأ بمقتل المرحوم بطرس غالى باشا وانتهى بمقتل المأسوف عليه السردار وبين الفقيدين ضحايا أخرى سقطوا فى ميدان الشهوات السياسية .

لقد بدأ التحقيق دولة عبد الخالق ثروت باشا وانتهى به سعادة

طاهر نور باشا وبين النائبين العموميين نواب عموميون آخرون من ذوى العقول الراجحة ، والأفكار الثاقبة • وقد وضعوا نصب أعينهم مصلحة بلادهم فعملوا على ابرائها من هذا الداء الوبيل فبحثوا ودققوا وبذلوا جهودا كبيرة فى هـذا السبيل • فان كانت المجهودات التى ظلت زمنا طويلا لم تنتج الا اتهام عشرات من الأشخاص فمن العدل أن نقرر هنا أن هؤلاء المتهمين أقلية ضئيلة بل أقلية تافهة لا تعبر الا عن رأيها فعليهم وحدهم أن يحملوا مسئولية أعمالهم ، وعليهم وحدهم أن يحملوا تبعتها •

واذا كانت هذه التحقيقات أيضا لم تثبت وجود أية صلة بين هذه الفئة القليلة ، وبين أية هيئة سياسية فمن الانصاف أن نقرر هنا أن مجموع الأمة برىء من هذا الاجرام •

حضرات المستشارين : قد يكون من حسن حظنا جميعا أن يعرض الأمر برمته على هذه المحكمة وهى أكبر هيئة قضائية مختصة فى هذه البلاد لتقول كلمتها • وقد تكون الكلمة التى تصدر منها هى أقرب الكلمات الى صدور الأمم المتمدينة •

لقد رأيتم بأعينكم وسمعتم بآذانكم كيف كانت الأمة تتفجع عند وقوع كل حادث ، وكيف كان ينبرى الزعماء الى تقبيح هذه الأعمال ، وبيان ما يلحق البلاد من جرائها ، فصم المتهمون آذانهم عن سماع أنين مصر ونصائح الزعماء • فكلمة منكم يا حضرات المستشارين قد تخفف آلاما تحملتها الأمة بصبر ، وتقضى على أراجيف أذيعت عن هذه البلاد بغير حق •

ستحكمون بادانة المتهمين أو ببراءتهم حسبما تستريح اليه ضمائركم الطاهرة ، ولكنكم ستقضون حتما أن مصر بريئة من الاجرام والمجرمين وستظل سائرة فى طريقها المشروع نحو غايتها المنشودة رافعة راية السلم حتى تتبوأ بين الأمم مركزا يليق بتاريخها الخالد المجيد •

دفـــاع

حضرة الأستاذ مكرم عبيـــد

لقد أثارت هذه القضية بين الناس على تبـــاين نزعاتهم وأهوائهم شديد اهتمامهم وكامن عواطفهم ، وهـــذا طبيعى لأن القضية سياسية. والسياســـة كانت ولا تزال مسرحا لكل عاطفـــة ، وسوقا لكل شهوة ، وميزانا لكل ضعف وكل قوة . ولقد نتج عن هـــذا الخلط بين السياسة والقانون أن اختلطت فى القضية أسباب الحق بالباطل ، والعدل بالظلم، والصدق بالكذب حتى أصبحت مجمعا لكل تناقض ومضربا لكل مثل .

غير أن القضية قد أثارت أيضا هواجس الناس ومخاوفهم ، وهذا غير طبيعى ، لأن القضـــايا يقصد منها أولا وقبل كل شيء الوصول الى العدل ، والعدل تطمئن له النفوس ولا تجزع .

ولكن النـــاس خافوا — وحق لهم أن يخافوا — لأنهم خشوا أن هذه القضية ذات الأهمية الاستثنائية قد يختل لها التوازن القـــانونى قبل أن تصـــل الى حرمة القضـــاة ، فتجر الى اجراءات استثنائية فى الاتهام والتحقيق ، ومن طبيعـــة الاستثناء أنه لا يعرف حـــدا ، لأنه لايعرف قاعدة ، بل هو ضد كل قاعدة ، ولا يعبأ بعدل أو مساواة لأنه لا مساواة مع استثناء ، ولا يخضع لضمان لأنه لا يرى ضـــمانا الا فى هدم الضمانات ، ثم ان الاستثناء هو الفكاك من كل قيـــد . ومن سوء حظ البشرية أن هنـــاك نفوســـا اذا لم تكبح تجمح ، واذا لم ترعو لا تستحى ، وهناك نفوس تجزع ، ونفوس تطمع . وهكذا فالاستثناء، مهما تلطفنا فى تسميته ، هو الظلم بعينه لأنه يفتح البـــاب لكل شهوة

ثم أخذ حضرة المحـــامى يتحـــدث عن تصرفات البوليس فى هذه القضية وعن وجود جمعية سياسية للقتل السياسى ثم انتهى من مرافعته بالكلمة الآتيـــة :

ياحضرات المستشارين : لقد انتهى واجبى كمحام . ولا ريب أن واجب المهنـة يتطلب كثيـرا من الصـنعة ، وأنه فيمـا بين الأوراق والدوسيهات وشهادة الشهود والاتهام والدفاع يخلق جو خاص هو جو المحاكم ، وكثيرا ما تضيع على المتهم شخصيته فى وسط هـذا الزحام العلمى ... فيصبح المتهم ويمسى فاذا به قد تحول الى نظرية قانونية أو دليل يتراشقه الخصمان ، النيابة والمحـاماة ، فهو فى نظر النيـابة منـدمج فى الاتهـام وفى نظر المحاماة هو عبـارة عن الدفاع ... أما شخصيته ، أما حريته ، أما عواطفـه فهى فى نظر الاتهام مسألة ثانوية طالما أن القضية (مخدومة) .

وانى أؤكد لحضراتكم أنه ليس أقسى على المتهم من هذا التجرد من شخصه ، هـذا التنكر عن أهله وجنسه ، فاذا دخل فالى سجن ، واذا خرج فالى قفص .

يجب ألا ننسى أن المتهم الذى هو فى السجن نمرة هو فى بيته حياة ومحبة . يجب أن لا ننسى أن المتهم الذى هو فى نظر النيابة اتهام هو فى الوقت نفسه أب وزوج وولد وأخ وصديق .

فلا تعجبوا اذن ، ياحضرات المستشارين ، اذا كلمتكم عن هؤلاء المتهمين كأشخاص وبشر ، فأنتم والله الحمد لستم قضـاة أوراق ، كما وصف حضرة قاضى الاحالة نفسه . أنتم — وانى لأرتجف من هـول ما أنتم — أنتم قضاة نفوس بشرية أودع الله مصيرها فى كلمة تخرج من أفواهكم ، فأنتم لسان الله وصوت القدر . فاقضوا اذن بيننا وبين شفيق منصور ، ذلك المجرم الذى قضى الله عليه مرات عديدة قبل أن يقضى عليه بشر ، اقضوا بين ضـعفنا وقوة من اذا قال قـدر ، فأنتم أقوى وأنتم أقدر .

(ملحوظة — قضى فى هذه القضية باعدام محمد فهمي علي وبراءة باقى المتهمين) .

مرافعـــة

حضرة صاحب العزة مصطفى حنفى بك

رئيس النيـــابة

فى قضية الجناية رقم ٣٦٦ بنـدر الجيزة سنة ١٩٢٧ الخاصـة بالاعتـداء على المسيو سلامون شكوريل ، وقتله المتهم داريو جاكويل وآخرين أجانب .

حضرات المستشارين :

اسمحوا لى أن أؤدى واجبى ، فأعيـد الى ذكراكم حادثا أليما ، ذلك الجرم الشنيع الذى ارتجت له أركان البلاد وتفزعت منـه نفوس النـاس : قتل تاجر من أكبر التجـار وأطيبهم نفسـا وهو وادع فى بيته ، آمن فى سربه ، وتأييم سيدة كريمة لم تستوف بعد سن الشباب، وتيتيم أطفـال صغار مازالوا بحاجة كبيرة الى جناح الأب الرؤوف . أقصد بهـذا مقتل المأسوف عليه المسيو سـلامون شيكوريل بشـارع الجيزة . ذلك الرجل الذى لم أكن أعرفه من قبل ولكنى عرفته من خلال التحقيق : رب عائلة على أحسـن ما يكون ، وزوج من أبر الأزواج ، ووالد من أطيب الآباء ورئيس شفيق بمرؤوسيه . فقد تبينت كل هـذه الصفات فى تلك العيون الباكية ، وتلك الوجوه العابسة التى كانت تنم عما فى نفوسهم من حزن وأسى . حتى لقد كان كل منهم يرى المصـاب مصـابه والفقيد فقيده فأبوا أن يذهب هـذا الرجل الى داره الأخيرة الا محمولا على أعناقهم .

حضرات المستشارين :

أنتم من شيوخ القضاة ، خبرتم الدنيا فذقتم حلوها ومرها . وفى

هذه الساحة المقدسة ساحة القضاء العادل سمعتم شكوى المظلومين وسمعتم أنين المحزونين ، ورأيتم كيف تفقد الزوجة زوجها والأم ابنها والابن أباه فى ظروف وحشية قاسية ، وأرسلتم كثيرين الى منصة الاعدام بحكم القانون وأنتم هادئون مطمئنون . ولكن قلما أن تكونوا فى خبرتكم الماضية رأيتم شيئا فظيعا كالذى أعرضه عليكم اليوم ، رجل آمن فى بيته بين زوجه وأهله ، يؤخذ قهرا ليذبح كما تذبح الأغنام، على مرأى من زوجه التى كادت تموت أسى وفزعا . إثنا عشرة طعنة فى صدر القتيل وظهره ، فارق بعدها الحياة وهو يتوسل اليهم بكلمات تذيب الحجر الصلب « خذوا كل شىء واتركوا لى الحياة » .

والذى يزيد الأمر فظاعة أن اثنين من المتهمين أكلا خبز القتيل وملحه ، بل لايزال مافى بطن أحدهما من نعمة هذا السيد . فما استطاعت هذه التوسلات أن تدخل الرأفة على تلك القلوب القاسية .

قبل أن آتى على تفاصيل هذا الحادث أريد أن أدلى بكلمة شكر لحضرات المحققين الأجانب وأذكر منهم القاضى الايطالى جناب الكافاليرى امبالوميني والقنصل الشيخ باباداكيس وقاضى القنصلية اليونانية على المساعدة القيمة التى أسدوها الينا فى تحقيق هذه القضية والتى كانت من الأسباب التى أدت الى النجاح .

ولقد ظهر بأجلى وضوح أن التضامن بين رجال التحقيق خير الوسائل للوصول الى الحقائق . وقد تكون هذه القضية من المرات القليلة التى تلاقى فيها القضاء الأجنبى بالقضاء الأهلى ، وعندى أن مثل هذا التلاقى سيكون له أثر بعيد المدى للوصول الى الغاية التى ننشدها ، وسيعدو بنا بخطوات سريعة نحو ذلك اليوم الذى تصبح فيه هذه التحقيقات بين أيد مصرية هى أشد ما يكون حرصا على اقامة العدل . لقد قام البوليس المصرى بواجبه فأضاف صحيفة جديدة الى صحفه المجيدة ، وقام المحققون من الأجانب والوطنيين بواجبهم

وسيقوم القضاء الأهلى بواجبه • وانا لمنتظرون بنفوس هادئة وقلوب مطمئنة أن يقوم القضاء الايطالى واليونانى بواجبهما أيضا بما عرف عن هاتين الأمتين من حب العدل والانصاف •

ثم أخذ حضرة رئيس النيابة فى سرد وقائع الدعوى والتطبيق القانونى وأتم مرافعته بالعبارة الآتية :

يحق لى الآن ، يا حضرات المستشارين ، بعد أن تقدمت اليكم بهذه البيانات الكافية ، وتلك الأدلة القاطعة أن أطلب الى حضراتكم أن تقضوا عدلا باعدام المتهم فالقتل أنفى للقتل •

نعم ان عقوبة الاعدام لن تعيد الى الضحايا أرواحهم ، ولا الى الأيامى أزواجهن ، ولا الى اليتامى آباءهم ، ولكنها مع ذلك أقصى ماتصل اليه العدالة البشرية • أما عدالة الله فستكون شديدة ، جزاء وفاقا لما جنب أيديهم •

ولست فى حاجة لأن أعيد على مسامعكم تلك الحكم التى دعت المجتمع الانسانى فى كل العصور أن يلجأ الى هذا العقاب الصارم فهو ليس انتقاما بل عبرة ، وفيه مع ذلك عزاء للقلوب الحزينة ، وتهدئة للخواطر المضطربة ، وتطمين للنفوس المنزعجة •

ولن تعيزوا ، يا حضرات المستشارين ، أى وزن لرأى الذين يقولون ان بعض المتهمين لا يقضى عليه بهذه العقوبة ، وأن من العدل أن يسوى بينهم جميعا • نعم ان القانون الايطالى ألغى عقوبة الاعدام واستبدل بها عقوبة أخرى ، **ولكن رب حياة شر من الموت ، ورب موت خير من الحياة •**

لقد قضى القانون الايطالى على هذه العقوبة منذ نحو أربعين عاما ، ولكن القوم من ذلك الحين يشعرون بحاجتهم الى هذا الجزاء

الرادع ، بل لقد أعيد فعلا فى جرائم خاصـــة • وعندى أنه لن يمضى زمن طويل حتى تعود هذه العقوبة الى ماكانت عليه •

ولقد استبدلت بعقوبة الاعدام فى ايطاليا عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة التى تعرف عندهم بالأرجسولا • وشتان بين هذه العقوبة ،وبين عقوبة الأشغال الشاقة المعروفة عندنا •

وقـــد قال المســـتر بوســـتن بروس فى مقـــال منشور فى مجلة " Law Qurterly Review " وصفا لهذه العقوبة ما يأتى :

« فما الأرجستولا الا اعادة لذكرى تلك الأهوال التى قاســـاها عبيد الرومان فى تلك السجون المظلمة » وهى السجون التى وصـــفتها بحق اللادى هاملتون كنج بقولها :

« ان هو الا اسم من الشر ، وشىء من الشر ، وجهنم على الأرض لا تمر بخاطر من كان فيه وساوس الأمل » •

ومع أن هذه السجون قد أدخل عليها من التحسينات ما استدعاه تقدم المدنية والاعتناء بالوســـائل الصحية فهى لا تزال مقر الأشقياء ومقبرة الأحيـــاء •

قضت المادة ٣٦٦ من القانون الايطالى بأن يحكم على من يقترف جريمة القتل المقترنة بجريمة أخرى بالأرجستولا •

والأرجستولا هى ، كما تقول المادة ١٢ من القانون المذكور ، عقوبة

مؤبدة تنفذ فى محل خاص يوضع فيه المحكوم عليه بالسجن الانفرادى لمدة السبع سنين الأولى باستمرار مع ملزوميته بالشغل ، وباقى المدة يصرح له فيها بالاشتغال مع غيره من المحكوم عليهم مع التزامه الصمت .

وبحسب المادة ٦٧ من هذا القانون يزاد على مدة الحبس الانفرادى المستمر مدة من سنة الى خمس سنوات اذا اقترف الجانى عدة جرائم معاقب عليها بعقوبات مقيدة للحرية وكانت احدى هذه العقوبات هى الأرجستولا .

وقال المسيو ادموند توريل المحامى بايطاليا فى مقدمة عن قانون العقوبات الايطالى :

« ان الأرجستولا هى أكبر عقوبة فى القانون ، وهى مؤبدة يترتب عليها حتما نظام الحبس الانفرادى فى أقسى أشكاله » .

وقد يفزع الذين يحكم عليهم بهذه العقوبة ، ويستولى عليهم اليأس حتى يبحثوا عبثا عن الموت ، بل ثبت أن كثيرين لايحتملون هذا العذاب المستمر فيموتون مبكرين ، وكثيرا ما يفقدون عقولهم .

وبودى لو كان لديكم من الوقت ما يسمح أن أتلو على حضراتكم ماقاله النواب الايطاليون عندما طلبوا اعادة عقوبة الاعدام لبعض الجرائم الى القانون الايطالى فقد نعتوه أنه أشد هولا من حكم الاعدام الذى استبدل به .

والحق أصارحكم ، يا حضرات المستشارين ، لو أن هذه العقوبة كانت فى قانوننا المصرى لرضيتها لمتهمى قانعا بأن المجرم قد نال مايستحق من عقاب .

ومع ذلك مالى أنا ولهذا البحث الذى استهوانى فأبعدنى عن

موضـوع مرافعتى • فنحن فى مصر ، والقـاتل والمقتول مصريان ، فانظروا حضراتكم الى قضيتنا بعين مصرية ، والشرائع الوضـعية كما تعلمون تتغير بتغير الزمان ، وتختلف باختلاف المكان ، فما يصلح لمصر قد لا يصلح لغيرها ، والعكس بالعكس •

ان ظروف هذه القضية قاسية تدعوكم الى استعمال القسوة ، فلا تجعلوا للرأفة منفذا الى قلوبكم • وان لنا من عمل المتهمين أنفسـهم مثلا ، فقـد أبوا أن يرحموا القتيل فـلا حق لهم فى الرحمة ، وأبوا أن يرأفوا بذويه فليس لهم أن يطالبوا الرأفة •

قد توسل اليهم أن يتركوا الحيـاة ويأخذوا ماعداها فأبوا الا أن يكونوا قتلة مجرمين ، وسقوه كأس الموت مرا ، فعلى المتهم أن يجرع بالكأس التى سقاها فريسته • قال الله تعالى : « يا أيهـا الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » •

فان كان سلامون شيكوريل قد مات بفعل الغدر والخيانة ، فليمت داريو جاكويل باسم القانون وكلمة الله ، والجزاء من جنس العمل •

لم يكن داريو جاكويل فقيرا ولا معدما دفعته الحاجة الى السرقة والقتل ، بل هو شـاب نشأ فى بحبوحة من العيش ، ولو شـاء لعاش شريفـا ومات شريفا ، ولكنها نفس شريرة تصـبو الى الجريمة بغير حاجة ولا سبب • **ومع أنه لايزال فى ريعان الشباب وزهرة الصبا فقد سار فى طريق الاجرام شوطا بعيدا ، بل بلغ فى قصير من الزمن أقصى مداه فدل بهذا على أنه عضو فاسد يجب أن يبتر وجرثومة خبيثة يجب أن تستأصل •**

لست أخاطبكم بلسان النائب فحسب ، بل أخاطبكم بلسان زوجة ترملت وهى فى زهرة شبابها ، وأبنـاء تيتموا وهم فى حاجة الى تعاهد

أبيهم ، أخاطبكم باسم هذه المدينة التى ماتجرعت من قبل هـذا النوع من الاجرام .

وأناشدكم أن تلحظوا مانحن فيه من ظروف ، فقبل هذه الجناية حدث حادث آخر ذهب بحياة رجل وولده من يد مجرم أثيم حقت فيـه كلمة القضـاء .

أخاطبكم كزوج وأب أشعر بمرارة الجرم وفظاعتـه ، وأرجو ، ياحضرات القضاة ، ان أنتم خلوتم الى خلوتكم المقدسة لتنطقوا بكلمة العدل أن تذكروا أنتم أيضا أنكم آباء وأزواج وأن تذكروا قوله تعالى وهو أصدق القائلين : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » .

من مرافعـة

حضرة الأستاذ صادق العجيزى وكيل النيابة

فى قضية الجناية رقم ٢٧ وايلى سنة ١٩٢٧

المتهم فيها أمين همام حماد أفندى عضو مجلس النواب

وآخر بقتل الصحفى (شرف)

هذه هى عقلية حضرة النائب . وشخص بمثل هذه العقلية وتلك الأخلاق لايمكن أن يكون الحكم عليـه حكما على الأمة . وليس هـذا بالدفاع الذى يقال فى صدد تهمة فردية لا علاقة للسياسـة والأحزاب بها . وما كانت النيابة يوما ما بمانعـة القصاص . ففى أول الحرب حوكم كايو الشيخ والوزير الفرنسى ، وفى آخرها حكم على بوتوملى من أظهر نواب انجلترا وأحد كتابها ، وفى مايو سـنة ١٩٢٦ حكم على

النائب الانجليزى سكلاتفالا • وفى كل يوم يسقط نواب وشيوخ ووزراء تحت سيف الجلاد ، ومع ذلك لا تتــأثر الشعوب ولا البرلمـانات ولا الأحزاب التى ينتمون اليها • فاقضوا قضاءكم العادل وأنتم مطمئنون الى أن الحكم بادانة النــائب لن يصيب سمعة مصر بسوء • انطقوا بحكمكم الفصل وأنتم على ثقة من أن الأمةوالبرلمان سيرفعون رؤوسهم مفاخرين بعدل قضاتهم • طهروا البرلمان ممن لايستحقون شرف النيابة عن الأمة ، وأفهموا المنتخبين أن يحسنوا اختيار ممثليهم ، وأفهموا أمين همــام أن النــائب وان كان يملك التشريع فانه لايملك القضــاء ولا التنفيذ • أفهموه أنه قد جاوز اختصاصه عندما نصب نفسه قاضيا على (شرف) وقضى عليه بالموت وأقام خادمه جلادا له • كونوا قساة فى حكمكم بقدر مافى هذه الجريمة من الفظاعة والخروج على القانون [1]•

مرافعــــة

حضرات الأستاذ عبد اللطيف محمود رئيس النيابة

فى قضية الجنحة رقم ١٤ دايرة عابدين سنة ١٩٣١ الخاصة بنشر مقال « حفلات الطرب ألم يكن الفقراء أولى بهــا ؟ » بجريدة السياســة

يا حضرات المستشارين :

لا نقرر نظــرية جــديدة اذا قلنــا ان الصــحافة هى مدرســة الأخلاق ، وهى مهذبة النفس ، القــائمة على الشعوب لتعليمها وترقية مداركها بما يجب أن تقدم لها كل يوم من بحوث شاملة لجميع نواحى الحياة ، فى أكرم لفظ وأقوم تعبير •

---

(١) ملحوظة قضى فى هذه الدعوى بسجن أمين همام حمادى ثلاث سنوات ألخ •

فالرجل الذي ينال شرف الانتساب اليها ، والاشتغال بهـا يجب أن يكون له من نتاج قلمه ، خير مثل يقـدمه لمن يقرؤه ، وأن يكون له من خلقه أحسن قدوة لمن يطالعه •

ولقد كان بالود أن يكون حال الصحافة فى مصر كحال الصحافة فى البلاد الأخرى • لا تعرف فى لغتهـا الا الترفـع فى القول والأدب فى التعبير والاحترام لحرية الافراد والجماعات ، والتبـاعد عن المطاعن، والضن بكرامتها عن الاختلاق ، وبهذا يمكنها أن تصل الى غرضها الذى وجدت له ، فتؤدى مهمتها السامية بدون عبث أو خروج •

غير أنه مما يؤلم أن تجتـاز مصر زمنا طـاشت فيـه الأقلام ، فخرجت عن اعتدالها ، وجاوزت مهمتها ، فنبت عن رشادها ، وهـذا راجع الى تطرق عناصر ، أنزلت من قدرها ، وحطت من شرفها •

ولقد زادتها المبادىء التى قررتها بعض الأحكام، لملابسات خاصة على ما أعتقد ، استرسالا فى غيها ، واستهتارا بما تقضى به مهمتهـا ، وتجاوزا لكل حد فى تعبيراتها ، فأصبح الأمر فوضى ، حتى لقد ظن أن الشذوذ هو القاعدة ، وأن الطعن مهما يكن جارحا فهو جائز ، وأنه يصح للكاتب أن ينال من شرف النـاس ، ومن سمعتهم ، تحت سـتار أنه نقـد مبـاح •

على أن هذه الأحكام على ندرتها قد وضـعت شرائط للنقد لم يرد بعض الكتاب أن يفهمها على حقيقتها توصلا الى اساءة الاستشهاد بها •

ولئن كان من أهم أسباب نزول الصحافة عن مستواها الذى يجب أن تكون فيـه دخول هذه العنـاصر التى لا تقدر الأدب قـدره ، أو تعرف للصحافة حقيقة مهمتها ، فلطالمـا عللنـا النفس بأمل أن يقوم المثقفون من رجالها ، بتقويم اعوجاجها ، واصلاح ما فسد من شأنها ، والنهوض بها من كبوتها •

ولكنهم لم يكونوا عند حسن الظن بهم ، اذ سرت اليهم عـدوى الأولين فاذا هم والأولون سواء •

وقضية اليوم ، تتعلق بكاتب معروف ، له من تربيته ، وثقافته ، ما يمنعه من استباحة قلمه ، يرسله من غير حق فى مواقف ماكان أغناه عنها ، ويشرعه ظلما فى صدور أشخاص لا ذنب لهم ، الا أنهم يقومون بواجبهم • ذلك الكاتب هو الدكتور هيكل بك الصـحفى ، القـانونى ، الأديب •

ثم أخذ رئيس النيابة العمومية فى شرح وقائع الدعوى والتطبيق القانونى ثم أتم مرافعته بالعبارة الآتية :

ياحضرات المستشارين :

اذا ما خلوتم لتقولوا كلمتكم ، فأشيروا الى أن حرية الصحافة ، أو بعبارة أخرى أن حرية النقد ، ليست هى حرية أخذ الناس فى شرفهم وفى كرامتهم ، بل يجب أن تكون فى حدود القـانون ، مشـبعة بروح العدالة ، لا لغرض الامتهان •

ان جرائم الصـحافة أثرها بالغ ، وغورها بعيـد ، أثرها ليس قاصرا على المتهم ومن جنى عليه وانما يتعدى الى الكثيرين •

ولن يستوى فى نظركم من يعرف القانون بتفصيله ، ومن له من علمه وتربيته ما يرشده الى حقائق الأشـياء — لن يستوى هـذا مع من هو جاهل بها •

فاذا ما أخذتم الصحفى على قدر عمله ، ووضوح غرضه ، فانكم تقومون بالاصلاح الذى نرتجيه، فلا يولد بعد ذلك ضحايا ولا يوجد متهمون •

ان المطمئنين من الناس ، والقائمين بينهم ، يفزعون الى عدلكم ، وهم يرجون بعدها أن تأخذ الصحافة مكانها الصحيح ، مكان المهـذب والمرشد الأمين ، عف اللسان ، لا سلاحا للتشهير والاعنات .

عندئذ تصبح الصحافة فى مصر للخير ، وللخير وحده (١) .

مرافعـــة

حضرة الأســتاذ عمر عارف
وكيل النيابة فى قضية الجناية
رقم ١٥٧٠ طهطا سنة ١٩٣٢

ياحضرات المستشارين : — — —

فى اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٩٣٢ روعت مصر — ريفها والصعيد — بزلزال كاد يطغى على قرية آمنة ، وينكب الناس فى قوم أسلموا أنفسهم لراحة النوم فى قطر تمر سراعا لتبلغ بأصـحابها مدنا قاصية من الصيد الأعلى . ولولا ما عرف عن مصلحة سكة الحديد من يقظة الحفظة الحارسين ونظامها الدقيق المكين ما نقلوا الى هذه المدن قدما ، ولآثروا الدعة فى عقر دورهم على التعرض للمخـاطر فى رحلة تحف بها الجرائم ويطيف بها الآثمون .

زلزلت الأرض فى طما زلزالها . ومصر جنة الله فى أرضه . برأها نقية طاهرة على خير ما يشتهى الطامعون فى جنة الخلد ، ليس فيها من زمهرير الشمال ولا زلزال جزر الاقيانوس ولا فيما يلى بحر الروم من جبال النـــار .

ملحوظة : قضى فى هذه الدعوى بتغريم محمد حسـين هيكل بك عشرة جنيهات .

نعم روعت مصر بهذا الزلزال ، وما كان للطبيعة يد فيه ولكنها يد الانسان • ويا ويل العالم أجمع من شر الانســان اذا ركب الشيطان كتفيه ، وناصب الآمنين العداء !

هذا اليوم نعده من التاريخ الجنائى فى مصر • نذكره فنذكر فيــه هذه المأساة المروعة ، ونتبين فيه دما طاهرا لشهيد كان نكرة يدق أمره على الناس ، فلا يؤبه له فى طفولة ولا شباب ، فلما مات مجاهدا فى سبيل القيام بالواجب والدفاع عما اؤتمن عليه ، كان — بالقياس الى الآثمين — الشمس وضوحا ، والندى صفاء والطفولة براءة وطهارة ••• هذا الشهيد هو الحارس أبو زيد محمود •

يا حضرات القضاة :

انى أجلكم الاجلال الذى يرفعكم عن العبث برنين ألفاظ غير مطابقة فى معانيها لمقتضى الحال • وما كنت لأضيع لكم وقتا فى العبث بالألفاظ أسوقها فى حفل يشهده منكم قضاة هم فى الذروة من مجد القضاء انتهت اليهم مقاليــد الأمور فى الأموال والأرواح ، ليس لهــم الا قول الحق وعندهم فصل الخطاب •

فاذا بكيت بين أيديكم شهيدا وقلت لكم خذوا له بحقه ، وجعلته من نقاء الصحيفة فيما وصفته به ، وأكبرته بعد أن كان نكرة ، فانمــا لأن عبر هذه القضية عدت ما ألفناه كل يوم فى غيرها من القضايا •

رأيتم ورأينا فى حياتنا القضائية عدوان القتلة على الناس فكنا نشهد قاتلا راح يسرق فأحرج فقتل ، أو جانيا أخذ منه الحسد أو طوحت به الغيرة أو حفزه الثأر الدفين فنال من صاحبه واشتفى •

ولكن الأمر فى هذه القضية خرج عن مألوف هذه البواعث • انما نحن من هذه القضية فى بدعة • هى ضلالة جيل من الناس ظنوا أنهم فى

الحياة أحرار من قيود النظام ، فخرجوا عليه وحسبوا أنفسهم أنهم بالغون فى المتعة بلذاذات العيش الحظ الأوفى على ألا يقاسموا الناس تكاليف العيش من كد وجهد وكفاح .

لهذا رأيت وجوبا على أن أنظر الى القضية نظرة تحليل ودراسة ، وأخذت نفسى بأن أعرض لها فى تقص يرتب لنـــا مقدمات نخرج منها بتقدير ما أحيط بالمتهمين من دوافع فى جو حياتنا القومية لنرى أكان المتهمان على حق فيما ذهبا اليه ... واذا لم يكونا على حق ولم يأسرهما سحر العقيدة مما تتشبعه المثل العليــا ، وتستعبد به بعض النفوس ، وتستهوى من عشاقها القلوب فما هما ؟ وما شأنهما فى الحياة ؟ وما الغرض الذى يرميان اليه ؟ أفيه خير شابه شر ؟ أفيه عمل صالح خالطه عمل غير صالح ؟

وفيما نحن بسبيله نسأل : أفى مصر من يرى رأى هذين المتهمين فى حياة الخمول والرضا بالدون من العيش والجرأة على الله فى الذنوب والآثام ؟

نحن من نهضتنا القومية فى عصر انشائى لمــا نجن ثمراتها ونتفيأ ظلالها ، بل نحن نغرس لنجنى أو يجنى أبناؤنا من بعدنا ، ونؤسس لنبنى . لهذا نحرص الحرص كله على أن نحوط آمالنا وأعمالنا بسياج من الجد والحزم يمنعنا من الاباحية فى السياسة والأخلاق . هذا السياج هو النظام الذى يمليه علينا العقل السليم الناضج والرغبة الصــادقة فى خير الأمة .

نعم ونحن نبنى ونؤسس ونغرس ، نريد لمصر القوة فيما له بالصحة والأخلاق من صلة . نريد لمصر أطفالا سلمت آباؤهم من الآفات فأنبتوهم نباتا طيبا أزاهر يانعة . نريد شبابا لهم الصبر على المكاره والثبات على العمل والطموح الى المجد . نريد كهولا عركتهم التجارب فلا تبطرهم

النعمة فى النجاح أو تهد منهم أعاصير المغالبة والمكافحة • نعم نريـــد القوة فلا ضعف ولا تواكل ولا جبن ولا استخذاء •

ثم أخذ حضرة وكيل النيـــابة فى سرد وقائع الدعوى والتطبيق القانونى ثم ختم مرافعته بما يأتى :

يا حضرات القضاة :

انا أطلنا ونعتذر اليكم فيما فصلناه من أمر هذه المأساة وأفضنا فيه من بيان ، فما هى قضية رجلين قتلا رجلا وشرعا فى قتل رجل وكفى ، وما هى قضية تدمير واتلاف وحسب • ولكنها قضية لجناة خرجوا على نظام الدولة وأرادوا أن يقتلوا من الأمة هيبة الحكومة كائنة ما كانت وبئس ما يفعلون •

انما نحن فى موقفنا هذا لا ندافع عن الناس أفرادا وجماعات الا بقدر ما يمس هؤلاء من الأذى وما كنا لندافع عن المساء اليهم لسلطان كان لهم ، فلما انحاز عنهم سلطان هذا الجاه فترت منا الهمم وصغر من أمرهم ما كان عظيما عندنا • لا ! ولكننا ندافع عن مبادىء سامية لا تتغير بتغير رجال الحكم ولهذا نرفع الصوت عاليا لنقول أيها القضاة : « ان هيبة الحكومة لولا عدلكم الحازم فى خطر فصونوا هيبة الحكومة » •

اذا كنتم عرفتم بالرأفة والرحمة فها هى الأمة تناديكم بأن ارحمونى أنا ، وارأفوا بى ، فان الأشرار سلطوا نقمتهم فى مرافق حياتى وهيبة حكومتى فأى الناس يأمن الطريق والموت يكمن فيه بأروع ما يكون ؟ أى تاجر يتخطى هذا الجانب من مصر ؟ وأى سائح الى مصر يسعى ؟ وأى غريب يظن فى مصر نظاما تصونه هيبة الدولة وأمثال هؤلاء الجناة ، بعد الاقتناع بتلوثهم بالجريمة ، يعيشون ؟ وأية حياة لهم ترجى وهم يسعون لاهدار دمهم بأيديهم وبأفعالهم الآثمة ؟

انظروا الى عمر بن الخطاب وقد رأى بوادر الفتنة من انحياز على الى داره يوم بيعة أبى بكر اذ ذهب عمر يشتمل عزيمة جبارة نافذة ونادى صاحبه من وراء حجاب أن تعال بايع ولا تسع الى الفرقة والا حرقت دارك عليك ، فقال على وان كانت فيها فاطمة فقال وان •

انظروا الى بطرس الأكبر وقد أراد أن يخرج بوطنه من الظلمات الى النور ، فوجد الرجعيون من خصومه فى ولده الداعر المستهتر أداة هدم لبطرس ، فجعلوه محور المؤامرات ، فبصر بهم أبوه وهم يهمون برد بلاده الى الوحشية والاخلال بما رتبه من نظام ، وكان عليه أن يختار بين أن يكون أبا فيحنو على ولده وبين أن يكون منقذا لأمته ، فاختـــار الخير الأعم على الرأفة المترخصة المترهلة فى ولده • وقدم هذا العاق لقضاته فلم يجدوا له الا الموت فكان هو الموت وفيه لوطنه حياة •

يا حضرات القضاة :

اذا اقتنعتم بأن المتهمين قتلا عمدا ، ورأيتم سبق الاصرارمتوافرا ، ورأيتم الجرائم ثابتة لا نزاع فيها فانشروا بحكمتكم على مصر الأمن والسلام • اخدموا بلادكم بالنظرة البعيدة الثاقبة • لا تسمعوا لدموع المتهمين الكاذبة تطلب منكم الرأفة ، فأنتم موضع الرأفة وأهل لها ، ولكن مكانها من عدلكم اليوم هو فى ناحية الأمة • وكيف يقتلان ويهدمان ثم يرجعان منكم بالرأفة ! وأى شىء من رأفتكم اذا فى كفة الأمة المجروحة فى عزتها وهيبة حكومتها كائنة ما كانت • لا عليكم من أن يؤخذا بالحزم الصارم فى هذا الموقف ، فخير لأمتكم أن توصفوا به ، فهو سيف العدل ، والعدل محتاج لقلمه وسيفه مادام عقله البصير بين هذين الميزانين •

ان القاضى الذى يشتد فى الزجر لخير أمته من طريق العدل فى مثل هذه القضية لهو الذى يثبت أركان النظام من الدولة فى توجيه قوى الشعب الى العمل الشريف المثمر وسلام الجميع •

ان اللين فى موضع الشدة لا ينفع الا رجلين أساءا الى نفسيهما والى أمتهما معا • وأما الصرامة فى الحكم — وهذا يومها — فهى تنفع الناس جميعا • فتخيروا لعدلكم بين أن يخرج المتهمان بعد الحكم ضاحكين فرحين بالحياة ، ولو مؤبدة فى الحديد ، وبين أن تخرج الأمة باكية مروعة فى مرافقها مهددة فى هيبة الدولة • وأين نحن من الدعة ، والأمة تخاف الآثمين !!

ان الذين يصفون القضاة فى مثل هذه القضية بالقسوة لا يحسنون وضع الألفاظ فى حدود معانيها ، فانما القضاة أطباء الهيئة الاجتماعية يبترون العضو الميت من الجسم الحى •

اذا كان من الأفضل أن تحب الحكومة وألا تبغض ، فانا اذا جـد الجد لا يعنينا أن تحب الحكومة أو تبغض بقدر ما يعنينا أن تهاب • الحب يذهب ويروح بذهاب أسبابه ، والبغض يتبدل بتبدل ما يدعو اليه ، وأما هيبة الدولة فلئن زالت فانما هى الثورة وقيام الأشرار وهدم النظام • وليس بعد النظام الا الفوضى ، ولا ينقذ مصر من الفوضى الا القضاء ، وعندنا والحمد لله فى مصر قضاة •

قد يحبنى من يحبنى ، وقد ينحاز عنى اذا لم أكن له على ما عودته أو اذا كنت على نفعه غير مطيق ، وقد لا يبغضنى من الناس من أعف عما بين يديه من عرض ومال ولكن الهيبة — ذلكم السلطان — الذى يبنى على خوف العقاب ورهبة الزجر فانه الأساس لخير البلاد • والناس قد يعيشون بغير أن يبغضوا دولتهم وبغير أن ينصرفوا الى حبها ولكنهم لا يعيشون فيها بغير أعناقهم التى على الأبدان • فخوف العقاب هو همهم الأول ، وما دامت الحكومة لا تأخذهم بظلم ، وأنتم منهم فى هيكل عدلكم المقدس ، فلا يعتدى على هيبة الدولة وأنتم محكمون • علموا الناس أن يخافوا العقاب فيرجعوا من بغض الجريمة الى العمل الشريف المنظم • لا لين عند بوادر الفوضى • لا رحمة بالجناة يحشون القنابل

بالموت يبثونها فى الطريق الآمنة التى تحرسها فى الأمة هيبة الحكومة ٠ أيها القضاة الذين ليس لنا فى مصر غيرهم بعد الله ! انا من مرافعتنا بعد القيام بواجبنا أمامكم نثبت كلمة الختام :

صـونوا دماء الأمـة من عبـث الأشرار المجرمين ، وردوا على الحكومة — كائنة ما كانت — سلطانها من الهيبة ٠ قد تم للنيابة ما عليها من واجب فلم يبق الا الواجب الأعلى — واجب القضاء الذى يجلس منا مجلس الحكم لانصاف الأمة المظلومة من الأشرار الظالمين فلا تأخذكم بالأشرار الجناة رأفة ، وان فى موت اثنين من الثائرين على هيبة الدولة بألوان من التقتيل والتخريب لحياة لأمة مجدة شريفة تنام فى حراسة القضاء وعينه البصيرة وعقله الساهر على راحة الناس ٠ لقد لجأت الحكومة بسلطانها القوى الى عدلكم الأقوى لتصونوا لها هيبتها وانا من عدلكم الحازم ننتظر فى الآثمين حكم القضاة وان لكم فى القصاص حياة ٠

مرافعـــة

حضرة الأستاذ عبد اللطيف محمود رئيس النيابة

فى قضية الجناية رقم ٣٤٢ بولاق سنة ١٩٣٢

المعروفة بقضية القنـــابل

يا حضرات المستشارين :

أمام حضراتكم قضية قد يخيل الى المتهمين أن الاتهام فيها لم يبن الا على أساس اعترافهم فحسب ، وأنهم ما داموا قد عدلوا عن اعترافاتهم وعللوا هذا العدول بما أرادوا أن يدعوه أمامكم من أنه أو عز اليهم به فقد وجب على الاتهام — فى رأيهم — أن يقنع بتصويرهم ، وأن يسلم لهم بصدقهم فى عدولهم ، وحق على القضاء كذلك أن يأخذ بوجهة نظرهم دون ما مناقشة .

وواقع الحال أنها ظاهرة غريبة . لأنه من غير المنطقى ، ان لم يكن من المحال ، أن تتقدم اليكم النيابة بمتهمين عديدين ، منهم من يعترف على نفسه ومنهم من يعترف على نفسه وغيره ، وجلهم امعات لا قيمة لهم ، وتكون هذه الاعترافات بما أحاط بها من دليل ، وما لابسها من تفصيل — تكون هذه الاعترافات وليدة الجناية على الذمة والحقيقة ، وتكون قد أخذت بالطريقة التى قالوا بها .

والواقع أن هذه القضية غامر فيها بعضهم أمل الكسب العاجل ، أو تحت تأثير العاطفة الجهولة ، وتبعه البعض ظنا منه أن ما فعل انما هو نوع من أنواع الرجولة .

يا حضرات المستشارين :

يحاول المتهمون اليوم ، وقد أثقلهم جرمهم ، أن يخرجوا القضية

من حدودها الطبيعية الى ما يمكن أن يفهم منه البسطاء أن القضية ، وهى غنية بأدلتها ، لم تخرج عن كونها رواية دبرت وقائعها ، وأنهم كانوا من الداخلين فى تمثيلها رهبة أو مرضاة • ويمينا لو قدروا لادعوا أن القنابل لم تصنع ولم تلق فى المنازل والمصالح •

ولكن النيابة ، وقد أحاطت التحقيق بكل الضمانات التى تكفل للمتهم حرية الادلاء بما يريد ، ستريكم أنه لا فائدة ترجى للمتهمين من عدولهم هذا ، وأن الاعترافات التى سجلت عليهم سليمة من كل شائبة ، مؤيدة بالدليل المقنع • وستخرجون من القضية — كما خرجت منها — وأنتم على يقين من أن المتهمين السادس عشر والسابع عشر هما العقل المدبر ، واليد المحركة ، وأن كل هذه الجرائم التى وقعت فى غسق الليل حتى كادت تذهب بأرواح بريئة لاذنب لها انما هى من شيطانهما وباملائهما ، وقد موناها بما لهما أو بما أعطى لهما باسم اعانة العمال العاطلين •

سأقيم البرهان على أن هذه الاعترافات لها دليلها المادى الذى يسقط من قيمة الانكار ، وسأدلكم على ما يثبت سابقة اعتراف المتهمين بفعلتهم لأشخاص هم أبعد الناس عن رجال البوليس ، وقبل أن يتصل البوليس بالمتهمين أو يعرفهم • وأخيرا سأقيم الدليل على أن حركة العمال التى بدأت بحوادث العنابر والترسانة ومدرسة الفنون والصنائع تمخضت عن حركة كان يعمل فيها البعض على أنها حركة فدائية واستدرجوا اليها البعض الآخر ، ثم أنتجت الحوادث التى يحاكم المتهمون من أجلها •

لست من غواة تزويق الكلام والاكثار فيه ، بل سأحاول القصد ما استطعت متجها الى الصميم غير تارك ما قد يظن فيه مصلحة للمتهم دون أن أتقدم اليكم به وبما ينفيه •

ثم أخذ حضرة رئيس النيابة العمومية فى شرح وقائع الدعوى والتطبيق القانونى ثم أتم مرافعته بالعبارة الآتية :

يا حضرات المستشارين :

الآن وقد فرغت من واجبى فأطلعتكم على القضية بما وسعته من دليل أجد المبرر فى نفسى لأن أقول لحضراتكم كلمة هى فصل الخطاب •

ان الفرية التى تقـــدم بها المتهمون ، بل أستغفر الله وأقول ان الفحش فى القول والامعان فى الكذب الذى تقدم بهما المتهمون يتطلبان منكم صرامة فى الحكم وشدة فى الاستنكار •

انهـــم لم يتقدموا لـــكم بدفاع عادى كغيرهم من المتهمين ، على تعدد ما عرض عليكم وعلى غيركم من قضايا • ولكنهم لجأوا الى أسوأ ما يمكن أن تلجأ اليه طائفة من المجرمين ــ لجأوا الى الطعن فى كل هيئة وليت التحقيق أو كان لها اتصال بالتحقيق •

كان البوليس هدفا لمطاعنهم فلم يتركوا فرعا من فروعه الا تحدثوا عنه بمثالب •

فادارة الأمن العام ليس فيها أمن ، وهى التى تسيطر على الهيئة التنفيذية فى البلاد لمجرد أن كان لها ضلع فى معرفة المجرمين •

والقسم السياسى جعلوه ملفقا ، لا لصحة فى دعواهم ولكن لأنه سعى وراء الحقيقة حتى وصل اليهم فأراد أن يطهر من أمثالهم البلاد •

حتى ضباط البوليس الذين قاربوا المتهمين ولو من بعيد جعلوا منهم أيضا أعضاء فى مؤامرة واسعة النطاق لا تتناول الا أمثال العزب وعبد الرسول •

بعد أن شفوا حقدهم تخطوا تلك الهيئة المحترمة فى كل الممالك الى ما هو شاق على النفس التحدث فيه •

جرؤءا فصوبوا سهاما ظنوا أنهم يصيبون بها معقلا من أهم المعاقل فى كرامة البلاد .

ولن أطيل عليكم التحدث عنها فهى هيئة لى شرف الانتماء اليها وفخر الانتساب الى أسرتها .

هيئـــة أرفعها ويرفعها الـــكل الى الهامات ، فتنحنى أمام شرفها الرؤوس وتطأطىء أمام عظمتها الجباه .

هيئة تمثل الهيئة الاجتماعية ، وهى فى الوقت نفسه جزء من قدس القضاء .

ان الهيئة التى لا تعرف ضعفنا ، كهيئة النيابة ، لا تعرف أشخاصا ، ولكنها تعرف الكرامة ، وتعرف الواجب والقانون . فمن شاء أن يحتكم الى القانون فنحن سواسية . نتقـــدم اليـــه على أن يكون ندا يعرف القانون .

وعندها يكون للنيابة فخر الاحتكام وفخر الحكم ، وعندها يقول القدس الذى تخضع له اذا كانت النيابة تجنت على المتهمين أو أنها كانت وستكون دائما الركن الحصين .

يا حضرات المستشارين :

يظهر أن البغاث بأرضنا يستنسر . فما دام المتهمون قدروا على التقول فى النيابة فلم لا يتقولون أيضا على القضاء .

الى هذا الحد وصل الاستهتار بكل ما هو مصون ...

راشوا أيضا سهامهم يظنون أنها تصيب فرموا رئيس المحكمة قاضى المعارضة ، ورموا قاضى الاحالة وهم يعمهون . أنا لا أجرؤ أن أتكلم عن القضاء . لقد كنتم قضاة ، وأنتم الآن قضاة وهم يتهمون القضاء .

وليس لى أن أدفع عن كرامة هيئة عدلها من عدل السماء ، انما لى أن أطرح الأمر عليكم لتقولوا رأيكم فى رجال القضاء[١] .

مرافعـــة

حضرة صـــاحب العزة محمـــد لبيب عطية بك النائب العمومى أمام محكمة جنايات مصر فى قضية اتهام محمد على الفـــلال بالشروع فى قتل دولة اسماعيل صـــدقى باشا رئيس مجلس الوزراء دور شهر يوليه سنة ١٩٣٣ بجلسة الجنايات المنعقدة تحت رياسة حضرة محمد نور بك وعضوية حضرتى ابراهيم ثروت بك ومحمد نجيب ســـالم بـــك

حملت أمانة الدعوى العامة وهى أمانة خطيرة تنوء بهـــا الجبال الرواسى ، ولكن خطرها تحوطه روعة ، ويحفه جلال يتأسى به من يعرف الواجب ويصبو الى حسن القيام به .

بالأمس كنت جالسا بينكم أشاطركم ماتعانون من مشقة فى استظهار الحقيقة واستخلاص غوامضها ، وكنت ألتمس معكم عون بارىء الكائنات الذى يعـــلم السر وأخفى ، وأستلهمه كما تستلهمون صـــواب الرأى وطمأنينة اليقين .

---

(١) ملحوظة : حكم فى هذه القضية ببراءة شعبان أحمد شعبان وعبد الرحمن عليوه وشوقى سلمان ومحمد جاد وحسن والدكتور نجيب أسكندر ومعاقبة ابراهيم محمد عبده الشهير بالفلاح وباقى المتهمين بعقوبات تتراوح بين الحبس مع الشغل لمدة ستة شهور وبين الأشغال الشاقة لمـــدة خمس عشرة سنة .

فلا عجب ، وهذه حالى ، وتلك دخيلة نفسى ، ان شعرت اليوم فى موقفى أمامكم بعبء مضاعف الأثقال ، عبء الأمين على دعوى الهيئة الاجتماعية ذات الخطر العظيم ، وعبء الزميل الذى عليه لزملائه ، وقد لابس ما يعانون ، واجب الجهد لهم حتى يطمئنوا الى ما به يقضون •

نادانى هذا الواجب من أول لحظة توليت فيها تحقيق هذه القضية فلبيت نداءه ، وسرت فى سبيلى على نحو أرجو أن يكون رائدى فيه لم يغب ، وبغيتى منه لم تفت ، والرضا عنه لم يضن به •

جعلت رائدى أن يكون تحقيق النيابة — ألتى حلت عملا فى نظامنا القضائى محل قاضى التحقيق — محوطا بكل ما يلبسه ثوب تحقيق ذلك القاضى ، ويكسبه مميزاته ويزينه بضماناته • فأفسحت للمتهم ما وسعنى الافساح له ، وسارعت الى اجابته فى كل ما طلب ، وأرحت هواجسه مما خشى ، وأوصلت رجاءه لعنوانه فى الصغيرة وفى الكبيرة، وهيأت له فى أولى خطوات التحقيق الاستنجاد بمن يدافع عنه، فأبلغت رسالته لنقابة المحامين لتندب له من يستودعه سره ويرعى مصلحته • ولما أهدرت تلك الرسالة ، ولم يجب داعيها ، طمأنت لوعته ، وهدأت ثورته ، ذاكرا له أن أوان ذلك لم يفت وأن لكل سائلة قرارا •

كان هذا رائدى • أما بغيتى فقد عملت على أن أسعف خلجات نفوسكم ، وخطرات قلوبكم ، وتشدد ضمائركم ، بكل مدد من الوقائع بغير تمييز بين ما راح منها فى جانب الاتهام وما يمكن أن يتعلق به الدفاع •

أما رضاكم فآمل أن يكون مظهره كلمة الحق التى لابد أنكم قائلوها اليوم أو غد ، أليس الصبح بقريب ؟

حسبى بما قدمت فاتحة لمرافعة الاتهام • أستغفر الله بل فاتحة لقصة الحادث الجلل الذى وقع فى صدر يوم ١٦ مايو الماضى ، وما

تستتبعه وقائعــه بجملتها وتفاصيلها من تحليل وتمحيص ، سواء أكان ذلك من ناحيــة القــانون أو من ناحيــة البواعث النفسية وأثرها فى الاجتماع ، ثم استظهار ماانكشف لعينى من أدوائها ،وطرحه جليا أمام حكمتكم البصيرة ، لتصفوا الدواء وتعالجوا الداء .

سأعرض على أسماعكم هــذه القصــة مستهديا فى سردها بنور اليقين ، وطمأنينــة الاقتناع ، وسأنبذ كل ماقــد يحيطنى — ولو فى مظاهر الأشياء — بشبهة من قال « لكل حال لبوسها » فليس بهين على — وقد أوفيت على تلك السنين — أن أتحلل بين عشية وضــحاها من تفكير القاضى وميزان تقديره وروح تمييزه ، لاسيما وأننى لا أزال على نسبى القديم .

سأنبذ ثوب التهافت على الاتهــام ، كما نبذت فى تحقيق الترحيب به والهشاشة له . وآية ذلك ما أرجو أن تشهد به ثناياه من السير وراء كل جليل وكل دقيــق من الوقائع التى قــد تنفع ذاك المتهم المــاثل أمامكم . ولم تكن لى أية مفخرة فى ذلك ، فان الواجب العــريق قــد تضــاعف فى نظرى عشية رأيت المتهم وقــد استنجد فلم ينجــد ، والتمس المواتاة من حظيرة رجال الدفاع فلم يؤات . ولعل تلك الهيئة الموقرة لم ترد بتغاضــيها الا معنى الاستنكار لمــا وقع . ولعلهــا ، ولتعــذرنى اذا انتزعت معنى آخر فيــه الترضية لنفسى ، وثقت بأن الرجل — وأمره اذ ذاك فى يدى — ليس فى حاجــة الى معونة . واننى لأشكر لها هذه التحية المغطاة ان كان حقا ما همس به الظن الكريم .

قلت انى سأنبذ ثوب التهــافت على الاتهام ، وها أنا أطيع منطق هــذا الوعد ، وأكف فى هــذه المرحلة من حــديثى عن تقــديم المتهم بصفاته التى كشف عنهــا التحقيق ، خشية الظن الفطين بأنى أستجلب ضوءا قاتما من حوله تنعكس أشــعته على ما سأسرده من أعمــاله ، فينجسم صغيرها ويعظم ضئيلها . سأكف عن ذلك الآن برغم ما جرت

به العادة من تقديم المتهم لقضاته بالصفات التى انكشفت عنه قبل الاسترسال فى بيان ما أتاه .

وسأكف أيضا فى الآونة الحاضرة عن ذكر من وقعت عليه الجناية فان التنويه به فى هذه المناسبة قد يؤول أنى أستثير غضبتكم على الجانى قبل أن أقنع ضمائركم بجنايته ، ولو أنه تأويل واهى الأساس ، فانكم أكبر من أن تغضبوا قبل أن تطمنوا ، وأنا فى هذا معكم على عهد مسئول .

ثم تكلم سعادة النائب عن وقائع الدعوى والتطبيق القانونى وتحقق ظرف سبق الاصرار والترصد وانتهى من مرافعته بالخاتمة الآتية :

لقد أبنت مبلغ نذالة الجريمة ومدى شرها اذا هى وقعت على كابر جليل المقام . أبنت ذلك بقدر ما فسح لى موقف النائب العمومى وأجازته الأمانة فى عنقه . ولو أن المجال حر لقائل لسمعتم كل ما يتطلبه حزمكم وترضاه عدالتكم ، ولكنى كما أسلفت مؤمن بفطنتكم ولى فيها كل الغناء .

على أن هناك أمرا أجل شأنا وأعظم خطرا لا أستطيع حمل ضميرى على كتمانه ولا عقد لسانى عن بيانه . هذا الأمر الخطير هو ما أشرت اليه فى صدر مرافعتى وألمحت به عند حديثى على الباعث الذى دفع المتهم الى جنايته .

ذلك هو ولع التبطل ، وغواية الاستعظام ، وما أجملت فى جلسة الاحالة بأنه داء اجتماعى وبيل يهدد الحكومات فى كيانها ، ويشل النظام من أساسه ، وأنه ان لم يؤخذ بيد عسراء استفحل ضرره وعز اتقاء شره .

نعم استفحل ضرره وعز انتقاء شره .

ارسموا لأنفسكم ، بواسع خبرتكم ونافذ بصيرتكم ، حال البلاد وقد أصبح كل عظيم فيها هدفا لنار أى شقى تربعت فى نفسه الشريرة هذه الأفكار الخطرة .

تلك حال أستعيذ بالله منها .

هى مضيعة للطمأنينة ومقتلة للنبوغ ومفسدة لنفس العـــاملين . بل هى حفرة يتردى فيهـــا اخلاص المخلصين ونشاط المجدين وايمان المصلحين .

أنتم قضاة الحق ولكنكم أيضا مربو الخلق .

وكلمة العدل التى بها تنطقون يتجاوب صداها فى نفوس ناشئة ، ونفوس ثائرة ، ونفوس فزعة خائرة .

فاجعلوا حكمكم رسالة عدل وبلاغ عبرة وبشرى سلام .

فاذا جنحتم الى الرحمة فاشملوا بهـــا النشء وقـــد أوشك أن يلتوى ، والبلاد وقد دب فيها ذاك الداء الوخيم .

أنتم أطبـــاء النفس كما أنتم قضـــاة العدل . والطبيب البصير لايتردد ولا ينى عند الضرورة الحاكمة ، والقاضى الحازم يهذب بالزجر الحكيم ، وهو فى زجره من الراحمين .

وازنوا بين روعـــة الرحمـــة وقـــد حلت بالبـــلاد وبالنشء وبين ضآلتها ان هى حلت بهـــذا المجرم العتيد ، ثم اقضوا قضاءكم والله معكم انه نعم الهادى ونعم النصير .

ومن الخطب الهـامة التى يجب معرفتهـا من خطب الامام على رضى الله عنه وخطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولا شك أن الرسول ﷺ كان قمة البلاغة والخطابة وقد صـدق أمير الشعراء عنـدما قال فى أمير الأنبيـاء :

فمـا عرف البـلاغة ذو بيـان

اذا لـم يتخـذك لـه كتـابا

كان اذا خطب يناطح السحاب ويتطـاول الى الجوزاء ويزاحم الشمس فى الجـلاء ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، بعيـد المدى ، شـديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطلق الحكمة من نواحيه .

ومهما قال اللسان وأملى الجنـان وفاض البيان وسال البنـان فلن أصل الى شـاطىء البحر الذى عبره فارس المنـابر على بن أبى طالب رضى الله عنه .

من خطب الامام على كرم الله وجهه

١ — خطبتـــه الزهـــراء

« الحمد لله الذى هو أول كل شىء وبديه (١) ، ومنتهى كل شىء ووليه ، وكل شىء خاشع له ، وكل شىء قائم به ، وكل شىء ضارع اليه ، وكل شىء مستكين له .

خشعت له الأصـــوات ، وكلت دونه الصـــفات ، وضـــلت دونه الأوهام ، وحارت دونه الأحلام (٢) ، وانحسرت (٣) دونه الابصار ، لا يقضى فى الامور غيره ، ولا يتم شىء منها دونه .

سبحانه ما أجل شـــأنه ، وأعظم سلطـــانه ، تسبح له السموات العلى ، ومن فى الأرض السفلى ، له التسبيح والعظمة ، والملك والقدرة ، والحول والقوة ، يقضى بعلم ، ويعفو بحلم .

قوة كل ضـــعيف ، ومفزع كل ملهوف ، وعز كل ذليل ، وولى كل نعمة ، وصـــاحب كل حسنة ، وكاشف كل كربة ، المطلع على كل خفية ، المحصى لكل سريرة ، يعلم ما تكن الصـــدور ، وما ترخى عليه الستور .

الرحيم بخلقـــه ، الرؤوف بعبـــاده ، من تكلم منهم سمع كلامه ، ومن سكت منهم علم ما فى نفسه ، ومن عاش منهم فعليه رزقـــه ، ومن مات منهم فاليه مصـــيره ، أحاط بكل شىء علمـــه ، وأحصى كل شىء حفظـــه .

اللهم لك الحمد عـــدد ما تحيى وما تميت ، وعـــدد أنفاس خلقك

(١) البديه : أول كل شىء ومبداه .
(٢) الأحلام : العقول .
(٣) انحسرت : تعبت وكلت الأبصار فلم تستطع أن تراه .

ولفظهم ولحظ أبصارهم ، وعدد ما تجرى به الريح ، وتحمله السحاب ، ويختلف به الليل والنهار ، ويسير به الشمس والقمر والنجوم ، حمدا لا ينقضى عدده ، ولا يفنى أمده •

اللهم أنت قبل كل شىء ، واليك مصير كل شىء ، وتكون بعد هلاك كل شىء ، وتبقى ويفنى كل شىء ، وأنت وارث كل شىء ، أحاط علمك بكل شىء ، وليس يعجزك شىء ، ولا يتوارى عنك شىء ، ولا يقدر أحد قدرتك ، ولا يشكرك أحد حق شكرك ، ولا تهتدى العقول لصفتك ، ولا تبلغ الأوهام حدك •

حارت الأبصار دون النظر اليك ، فلم ترك عين فتخبر عنك كيف أنت وكيف كنت ، لا نعلم اللهم كيف عظمتك ، غير أنا نعلم أنك حى قيوم ، لا تأخذك سنة (٤) ولا نوم ، لم ينته اليك نظر ، ولم يدركك بصر ، ولا يقدر قدرتك ملك ولا بشر •

أدركت الأبصار ، وكتبت الآجال ، وأحصيت الأعمال ، وأخذت بالنواصى والاقدام ، لم تخلق الخلق لحاجة ولا لوحشة ، ملأت كل شىء عظمة ، فلا يرد ما أردت ، ولا يعطى ما منعت ، ولا ينقص سلطانك من عصاك ، ولا يزيد فى ملكك من أطاعك •

كل سر عندك علمه ، وكل غيب عندك شاهده ، فلم يستتر عنك شىء ، ولم يشغلك شىء عن شىء ، وقدرتك على ما تقضى كقدرتك على ما قضيت ، وقدرتك على القوى كقدرتك على الضعيف ، وقدرتك على الأحياء كقدرتك على الأموات •

فاليك المنتهى ، وأنت الموعد ، لا منجى الا اليك ، بيدك ناصية

---

(٤) السنة : النعاس •

كل دابة ، وباذنك تسقط كل ورقــة ، لا يعزب (٥) عنك مثقــال درة ، أنت الحى القيوم •

ســبحانك ، ما أعظم ما يرى من خلقــك ، وما أعظم مايرى من ملكوتك ، وما أقلهما فيما غاب عنــا منه ، وما أســبغ (٦) نعمتــك فى الدنيا وأحقرها فى نعيم الآخرة ، وما أشــد عقوبتك فى الدنيــا ، وما أيسرها فى عقوبة الآخرة •

وما الذى نرى من خلقــك ، وتعتبر من قــدرتك ، ونصــف من سلطانك ، فيما يغيب عنــا منه ، مما قصرت أبصــارنا عنــه ، وكلت عقولنا دونه ، وحالت الغيوب بيننا وبينه •

فمن فرغ ســنه ، وأعمل فكره : كيف أقمت عرشــك ؟ وكيــف ذرأت (٧) خلقــك ؟ وكيف علقت فى الهواء ســماواتك ؟ وكيف مددت أرضــك ؟ يرجع طرفه (٨) حاسرا وعقله مبهورا ، وسمعه والها (٩) ، وفكره متحيرا •

فكيف يطلب علم ما قبل ذلك من شــأنك ، اذ أنت وحــدك فى الغيوب التى لم يكن فيها غيرك ، ولم يكن لها سواك ، لا أحد شــهدك حين فطرت الخلق ، ولا أحد حضرك حين ذرأت النفوس •

فكيف لا يعظم شــأنك عنــد من عرفك ؟!! وهو يرى من خلقك ما ترتاع به عقولهم ، ويمــلأ قلوبهم ، من رعــد تفزع له القلوب ، وبرق يخطف الأبصار ، وملائكة خلقتهم وأسكنتهم سماواتك ، وليست

---

(٥) اى لا يغيب من علمه شىء ولو كان مثقال ذرة •
(٦) اى أن نعمته سابغة تامة •
(٧) ذرأ الخلق : خلقهم •
(٨) الطرف : البصر • حاسرا : كليلا •
(٩) الوله : ذهاب العقل والتحير •

فيهم فترة [١٠] ولا عندهم غفلة ، ولا بهم معصية .

هم أعلم خلقك بك ، وأخوفهم لك ، وأقومهم بطاعتك ، ليس يغشاهم نور العيون ، ولا سهو العقول ، لم يسكنوا الأصلاب ، ولم تضمهم الأرحام ، أنشأتهم انشاء ،وأسكنتهم سماواتك ، وأكرمتهم بجوارك ، وائتمنتهم على وحيك ، وجنبتهم الآفات ، ووقيتهم السيئات، وطهرتهم من الذنوب ، فلولا تقويتك لم يقووا ، ولولا تثبيتك لم يثبتوا ، ولولا رهبتك لم يطيعوا ، ولولاك لم يكونوا .

أما انهم على مكانتهم منك ، ومنزلتهم عندك ، وطول طاعتهم اياك لو يعاينون ما يخفى عليهم لاحتقروا أعمالهم ، ولعلموا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك .

فسبحانك خالقا ومعبودا ومحمودا بحسن بلائك عند خلقك ، أنت خلقت ما دبرته مطعما ومشربا ، ثم أرسلت داعيا الينا ، فلا الداعى أجبنا ، ولا فيما رغبتنا فيه رغبنا ، ولا الى ماشوقتنا اليه اشتقنا .

أقبلنا كلنا على جيفة [١١] نأكل منها ولا نشبع ، وقد زاد بعضنا على بعض حرصا ، لما يرى بعضنا من بعض فافتضحنا بأكلها ، واصطلحنا على حبها ، فأعمت أبصار صلاحنا وفقهائنا ، فهم ينظرون بأعين غير صحيحة ، ويسمعون بآذان غير سميعة ، فحيثما زالت زالوا معها ، وحيثما مالت أقبلوا اليها .

وقد عاينوا المأخوذين على الغرة [١٢] كيف فجأتهم الأمور ، ونزل بهم المحذور ، وجاءهم من فراق الأحبة ما كانوا يتوقعون ،

---

(١٠) الفترة : الضعف .

(١١) الجيفة : هى جثة كل شيء يموت اذا أنتنت وخرجت رائحتها . والمقصود هنا الدنيا ، فهى جيفة منتنة لا يتكالب عليها الا كلاب الطريق .

(١٢) على غرة : على غفلة على سبيل المفاجآة .

وقدموا من الآخرة الى ما كانوا يوعدون ، فارقوا الدنيا وصاروا الى القبور ، وعرفوا ما كانا فيه من الغرور ، فاجتمعت عليهم حسرتان : حسرة الفوت وحسرة الموت •

فاغبرت لها وجوههم ، وتغيرت بها ألوانهم ، وعرقت بها جباههم، وشخصت أبصارهم ، وبردت أطرافهم ، وحيل بينهم وبين المنطق •

وان أحدهم لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأذنه ، ثم زاد الموت فى جسده حتى خالط بصره ، فذهبت من الدنيا معرفته ، وهلكت عند ذلك حجته ، وعاين هول أمر كان مغطى عليه ، فأحد [١٣] لذلك بصره •

ثم زاد الموت فى جسده ، حتى بلغت نفسه الحلقوم ، ثم خرج روحه من جسده فصار جسدا ملقى لا يجيب داعيا ، ولا يسمع باكياء فنزعوا ثيابه وخاتمه ، ثم وضأوه وضوء الصلاة ، ثم غسلوه وكفنوه أدراجا [١٤] فى أكفانه ، وحنطوه ثم حملوه الى قبره ، فدلوه [١٥] فى حفرته ، وتركوه مخلى بمقطعات من الأمور ، وتحت مسألة منكر ونكير [١٦] ، مع ظلمة وضيق ، ووحشة قبر ، فذاك مثواه حتى يبلى جسده ويصير ترابا •

حتى اذا بلغ الأمر الى مقداره ، وألحق آخر الخلق بأوله ، وجاءه أمر من خالقه ، أراد به تجديد خلقه ، فأمر بصوت من

---

(١٣) اى جعله حديدا شديدا شاخصا •

(١٤) الادراج : لف الشيء فى الشيء . فها هو قد لف فى اكفانه •

(١٥) دلوه اى انزلوه •

(١٦) ذلك ان الانسان اذا وضع فى قبره وذهب عنه أصحابه وأهله وخلانه جاءه ملكان منكر ونكير ، فيقعدان الميت ويسألانه : من ربك ؟ وما دينك وما النبى الذى بعث فيكم •

سماواته ، فمـارت السماوات مورا [١٧] ، وفزع من فيهـا ، وبقى ملائكتها على أرجائها •

ثم وصـل الأمر الى الأرض — والخلق رفات لا يشعـرون — فأرج [١٨] الارض وأرجفها وزلزلها ، وقلع جبـالها ونسفها وسيرها ، وركب بعضها بعضـا من هيبتـه وجلاله ، وأخرج من فيها ، فجددهم بعد بلائهم، وجمعهم بعد تفرقهم ، يريد أن يحصيهم ويميزهم •

فريقا فى ثوابه ، وفريقا فى عقابه ، فخلد الأمر لأبده دائما ، خيره وشره ، ثم لم ينس الطـاعة من المطيعين ، ولا المعصية من العاصين، فأراد عز وجل أن يجازى هؤلاء وينتقم من هؤلاء •

فأثاب أهل الطاعة بجواره وحلول داره وعيش رغد وخلود أبـد ومجاورة الرب ، وموافقة محمد ﷺ ، حيث لا ظعن [١٩] ولا تغير ، وحيث لا تصيبهم الأحزان ، ولا تعترضهم الأخطـار ، ولا تشخصهم الاسـفار •

وأما أأهل المعصية فخلدهم فى النـار ، وأوثق منهم الأقـدام ، وغلت [٢٠] منهم الأيدى الى الأعنـاق ، فى لهب قد اشتد حره ، ونار مطبقـة [٢١] على أهلها ، لا يدخل عليهم بهـا روح [٢٢] ، همهم شديد، وعذابهم يزيد ، ولا مدة للدار تنقضى ، ولا أجل للقوم ينتهى •

---

(١٧) مارت السماوات أى تحركت وجاءت وذهبت حتى اختل نظامها .

(١٨) اى جعلها ترتج وتهتز وتضطرب وتلقى ما فى جوفها .

(١٩) الظعن : الرحيل .

(٢٠) غلت الأقدام : قيدت وسلسلت بالسلاسل والقيود .

(٢١) مطبقة على أهلها : قد احاطت بهم فلا يستطيعون الفكاك منها .

(٢٢) الروح : هو النسيم العليل الذى ينعش النفوس ويسرها .

اللهم انى أسـألك بأن لك الفضـل ، والرحمـة بيـدك ، فأنت وليهما ، لا يليهما أحد غيرك ، وأسألك باسمك المخزون المكنون ، الذى قام به عرشك وكرسيك وسماواتك وأرضـك ، وبه ابتدعت خلقـك ، والصلاة على محمد ، والنجـاة من النـار برحمتـك ، آمين ، انـك ولى كريم .

* * *

٢ ـ خطبـة جامعة لخصال الخير

قام على بن أبى طالب خطيبا فقال :

« الحمد لله فاطر الخلق وفالق الاصباح ، وناشر الموتى وباعث من فى القبور ، وأشـهد أن لا اله الا الله وأشـهد أن محمـدا عبده ورسوله .

أوصيكم بتقوى الله ، فان أفضـل ما توسل به العبـد الايمان والجهاد فى سبيله ، وكلمة الاخلاص فانهـا الفطرة ، واقام الصـلاة فانها الملة ، وايتـاء الزكاة فانهـا من فريضته ، وصوم شهر رمضان فانه جنـة (٢٣) من عـذابه ، وحج البيت فانه منفـاة للفقـر مدحضـة (٢٤) للذنب ، وصـلة الرحم فانهـا مثراة (٢٥) فى المـال منسأة (٢٦) فى الأجل محبة فى الأهل ، وصدقة السر فانه تكفر الخطيئة وتطفىء غضب الرب ، وصنع المعروف فانه يدفع ميتـة السوء ويقى مصارع الهول .

---

(٢٣) جنة : وقاية .

(٢٤) مدحضة للذنب : مذهبة له ماحقة له .

(٢٥) اى سببا للثراء والغنى .

(٢٦) منشأة فى الاجل : زيادة فى العمر .

أفيضـوا فى ذكر الله فانه أحسن الذكر ، وارغبوا فيما وعـد المتقون فان وعـد الله أصـدق الوعد ، واقتدوا بهدى نبيكم ﷺ فانه أفضل الهدى ، واستنوا بسنته فانهـا أفضـل السنن ، وتعلموا كتاب الله فانه أفضل الحديث ، وتفقهوا فى الدين فانه ربيع القلوب •

واستشفوا بنوره فانه شفاء لمـا فى الصدور ، وأحسنوا تلاوته فانه أحسن القصص ، واذا قرىء عليكم فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمـون •

واذا هـديتم لعلمه فاعملوا بمـا علمتم به لعلكم تهتدون ، فان العـالم العامل بغير علمه كالجاهل الجـائر الذى لا يستقيم عن جهله، بل قد رأيت أن الحجة أعظم والحسرة أدوم على هـذا العالم المنسلخ من علمه ، على هذا الجاهل المتحير فى جهله ، وكلاهما مضلل مثبور •

لا ترتابوا فتشكوا ، ولا تشكوا فتكفروا ، ولا ترخصوا لأنفسكم فتـذهلوا (٢٧) ، ولا تذهلوا فى الحق فتخسروا ، ألا وان من الحـزم أن تثقوا ، ومن الثقـة ألا تغتروا ، وان أنصحكم لنفسه أطوعكم لربه، وان أغشكم لنفسـه أعصـاكم لربه ، من يطع الله يأمن ويستبشر ، ومن يعص الله يخف ويندم ، ثم سلوا الله وارغبوا اليه فى العافية ، وخير ما دام فى القلب اليقين •

ان عوازم الأمور أفضلها ، وان محدثاتهـا شرارها ، وكل محدث بدعة ، وكل محدث مبتـدع ، ومن ابتـدع فقـد ضيع ، وما أحدث محدث بدعة الا ترك بها سنة •

المغبون من غبن دينـه ، والمغبون من خسر نفسـه ، وان الرياء

---

(٢٧) الذهول : ترك الشىء تناسيا له عن عمد أو شغله شاغل عنه ، فان الاكثار من الترخص فى الأمور يشغل الانسان كثيرا عن واجبات الدين .

من الشرك ، وان الاخلاص من العمل والايمان ، ومجالس اللهو تنسى القرآن ويحضرها الشيطان وتدعو الى كل غى ، ومجالسة النساء تزيغ القلوب وتطمح اليه الأبصار وهى مصائد الشيطان .

اصدقوا الله فان الله مع من صـــدق ، وجانبوا الكذب فان الكذب مجانب للايمان ، ألا ان الصـــدق على شرف منجـــاة وكـــرامة ، وان الكذب على شرف ردى وهلكة .

ألا وقولوا الحق تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله ، وأدوا الأمانة الى من ائتمنكم ، وصلوا أرحام من قطعكم ، وعودوا بالفضـــل على من حرمكم ، واذا عاهـــدتم فأوفوا ، واذا حكمتم فاعـــدلوا ، ولا تفاخروا بالآباء ولا تنـــابزوا [٢٨] بالألقـــاب ولا تمازحوا ، ولا يغضب بعضكم بعضا .

وأعينوا الضعيف والمظلوم والغارمين [٢٩] وفى ســـبيل الله وابن السبيل والســـائلين وفى الرقاب ، وارحموا الأرملة واليتيم ، وأفشوا السلام وردوا التحية على أهلها بمثلها أو بأحسن منها .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب » [٣٠] .

وأكرموا الضيف ، وأحسنوا الى الجار ، وعودوا المرضى ، وشيعوا الجنازة ، وكونوا عباد الله اخانا .

---

(٢٨) التنابز بالالقاب : رمى الناس بعضهم بعضـــا بالألقاب السيئة المهينـــة .

(٢٩) الغارمين : الذين لزمتهم الديون فى غير معصية .

(٣٠) سورة المائدة : ٢ .

أما بعد ، فان الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع ، وان الآخرة قد أظلت وأشرفت باطلاع ، وان المضمار اليوم وغدا السباق ، وان السبقة (٣١) الجنة والغاية النار .

ألا وانكم فى أيام مهل من ورائها أجل يحثه عجل ، فمن أخلص لله عمله فى أيام مهله قبل حضور أجله فقد أحسن عمله ونال أمله، ومن قصر عن ذلك فقد خسر عمله وخاب أمله وضره أمله ، فاعملوا فى الرغبة والرهبة ، فان نزلت بكم رغبة فاشكروا الله واجمعوا معها رهبة ، وان نزلت بكم رهبة فاذكروا الله واجمعوا معها رغبة ، فان الله قد تأذن المسلمين بالحسنى ولمن شكر بالزيادة .

وانى لم أر مثل الجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها ، ولا أكثر مكتسبا من شيء كسبه ليوم تدخر فيه الذخائر وتبلى فيه السرائر وتجتمع فيه الكبائر .

وانه من لا ينفعه الحق يضره الباطل ، ومن لا يستقيم به الهدى يجر به الضلال ، ومن لا ينفعه اليقين يضره الشك ، ومن لاينفعه حاضره فعازبه (٣٢) عنه أعوز وغائبه عنه أعجز .

وانكم قد أمرتم بالظعن (٣٣) ودللتم على الزاد ، ألا وان أخوف ما أخاف عليكم اثنان : طول الأمل واتباع الهوى ، فأما طول الأمل فينسى الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيبعد عن الحق .

ألا وان الدنيا قد ترحلت مدبرة ، وان الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ان استطعتم ، ولا تكونوا من

---

(٣١) اى ان الجنة مجال التسابق والتنافس .

(٣٢) العازب : الغائب البعيد .

(٣٣) الظعن : الرحيل .

بنى الدنيا ، فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل » [٣٤] .

* * *

٣ — وصيته الجامعة لكميل

عن كميل النخعى قال : أخذ بيدى على بن أبى طالب ، فخرج بى الى ناحية الجبانة ، فلما أصحر [٣٥] تنفس الصعداء ثم قال :

« يا كميل ، ان هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، فاحفظ عني ما أقول لك :

الناس ثلاثة : عالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، مع كل ريح يميلون ، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا الى ركين وثيق .

يا كميل ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الانفاق ، ومنفعة المال تزول بزواله .

يا كميل ، محبة العلم دين يدان به ، يكسب الانسان الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه.

يا كميل ، مات خزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون مابقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة ، ها ان هاهنا لعلما جما — وأشار بيده الى صدره — لو وجدت له حملة ، بلى أجد لقنا [٣٦] غير مأمون ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، ويستظهر

---

(٣٤) البداية والنهاية لابن كثير (٣٠٧/٧) ، وحياة الصحابة (٤٧٢/٣ — ٤٧٤) ، وجاء بعضها فى اعجاز القرآن للباقلانى (ص ١٤٥) .

(٣٥) اصحر : خرج الى الصحراء .

(٣٦) اللقن : سريع الفهم والفطنة ، ولكنه غير مأمون اى غير ثقة .

بنعم الله على عبـاده وبحججه على أوليـائه ، أو منقـادا لحمـلة الحق ولا بصيرة فى أحنائه [٣٧] .

ينقـدح [٣٨] الشك فى قلبـه لأول عارض من شـبهة ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، أو منهوما باللذة سلس [٣٩] القيـادة للشهوة ، أو مغرما بالجمع والادخار ، ليسا من رعاة الدين فى شىء ، أقرب شبها بهما الأنعام السائمة [٤٠] .

كذلك يموت العلم بموت حامليه ، اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله ، اما ظاهرا مشهورا ، واما خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبينـاته .

وكم ذا وأين ؟ أولئك والله الأقلون عـددا ، والأعظمون عند الله قـدرا ، بهم يحفظ الله حججه وبينـاته ، حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم .

هجم بهم العلم على حقيقة الايمـان حتى باشروا روح اليقين ، فاستلانوا ما استخشن المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالرفيق الأعلى .

---

(٣٧) أحنائه : جوانبه ، فهو ينقاد لأهل الحق لا فهما للحق وايمانا به ولكن هو التقليد فحسب ، فهو لا يحمل بين جوانب نفسه بصيرة يميز بها بين الحق والباطل .

(٣٨) أى يؤثر الشك فى صدره عند ورود اى شبهة اليه ، ذلك لأن الايمان واليقين لم يتمكن فى قلبه .

(٣٩) سلس القيادة : سهل الانقياد .

(٤٠) الأنعام السائمة : الماشية والأغنام التى ترعى حيث شاءت . والمقصود هنا انه ليس له انقياد للحق ، به هو منقاد لشهواته ونزواته حيثما كانت ، وقد يقلد أهل الحق فى شىء ثم ينكص على عقبيه فينقاد سهولة لأهل البـاطل .

يا كميل ، أولئك خلفاء الله فى أرضه ، والدعاة الى دينه ، آه آه شوقا اليهم • انصرف يا كميل اذا شئت [٤١] •

* * *

٤ — من كلامه عليه السلام

فى آداب الحكماء والعلماء

« من حلم ساد ، ومن ساد استفاد ، ومن استحيا حرم ، ومن هاب خاب ، ومن طلب الرئاسة صبر على السياسة ، ومن أبصر عيب نفسه عمى عن عيب غيره ، ومن سل سيف البغى قتل به •

ومن احتفر لأخيه بئرا وقع فيها ، ومن نسى زلته استعظم زلة غيره ، ومن هتك حجاب غيره انهتكت عورات بيته ، ومن كابر فى الأمور عطب ، ومن اقتحم اللجج [٤٢] غرق •

ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تجبر على الناس ذل ، ومن تعمق فى العمل مل ، ومن صاحب الأنذال حقر ، ومن جالس العلماء وقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم •

ومن حسن خلقه سهلت له طرقه ، ومن حسن كلامه كانت الهيبة أمامه ، ومن خشى الله فاز ، ومن استقاد الجهل ترك طريق العدل ، ومن عرف أجله قصر أمله :

---

(٤١) العقد الفريد — ابن عبد ربه الأندلسى — لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ م — (٢ / ٢١٢ — ٢١٣) •

(٤٢) اللجج : جمع لجة . ومنه لجة البحر : الماء الكثير الذى لا يرى طرفاه . فمن يدخل فى غمرة هذا الماء الكثيف يغرق . وكذا من دخل فى لج الأمور فى اختلاطها بشبهاتها وتفريعاتها يغرق فيها فلا يهتدى للحق منها •

ثم أنشأ يقول :

ألبس أخاك على عيـــوبه	واســتر وغط على ذنـــوبه
واصـــبر على بهت السفيه	وللزمــان على خطــوبه
ودع الجواب تفضـــلا	وكل الظلوم الى حسبيه »[٤٣]

* * *

٥ حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أوصيكم عبــاد الله ونفسى بتقوى الله ولزوم طاعته ، وتقديم العمل ، وترك الأمل ، فانه من فرط فى عمله لم ينتفع بشىء من أمله .

أين التعب بالليل والنهــار ، والمقتحم لجج البحار ، ومفــاوز القفــار [٤٤] ؟ يســير من وراء الجبــال وعالج [٤٥] الرمال ، يصــل الغدو بالرواح ، والمساء بالصــباح فى طلب محقرات الأرباح ، هجمت عليه منيتــه ، فعظمت بنفسه رزيتــه ، فصــار ما جمــع بورا ، وما إكتسب غرورا ، ووافى القيامة محسورا [٤٦] .

أيهــا اللاهى الغــار [٤٧] نفســه ، كأنى بك وقــد أتاك رسول

---

(٤٣) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢/ ٤٢٠ — ٤٢١) .

(٤٤) المفاوز : الصحارى القفار المهلكة ، وقد سميت الصحراء مفازة لأن من دخلها وخرج منها سالما فقد فاز ، والقفار : جمع قفرة ، وهى الأرض التى ليس بها نبات ولا ماء .

(٤٥) عالج الرمال : هو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه فى بعض .

(٤٦) محسورا : نادما أشد الندم على ما قدم واقترف من الذنوب وترك من الطاعات .

(٤٧) الذى يغر نفسه ويخدعها بجهله .

ربك [٤٨] ، لا يقرع لك بابا ، ولا يهـاب لك حجابا ، ولا يقبل منـك بديلا ، ولا يأخذ منك كفيـلا ، ولا يرحم لك صـغيرا ، ولا يوقر فيك كبيرا ، حتى يؤديك الى قعر مظلمة ، أرجاؤها موحشة ، كفعله بالأمم الخالية والقرون الماضية .

أين من سعى واجتهد ، وجمع وعدد ، وبنى وشـيد ، وزخرف ونجد [٤٩] ، وبالقليل لم يقنع ، وبالكثير لم يمتع ؟ !!

***

٥ ــ وصـية أمير المؤمنين
على بن أبى طـالب لابنـه الحسن

« من الوالد الفـانى ، المقر للزمان ، المـدبر للعمر ، المستسلم فيه للدهر ، الذام للدنيـا ، الساكن مساكن الموتى ، الظاعن اليهم عنها غـدا ، الى المولود المؤمل ما لا يدرك ، السـالك سـبيل من قد هلك ، عرض الأسـقام ، ورهينـة الأيام ، ورمية المصـائب ، وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وغريم المنايا ، وأسير الموت ، وحلف الهموم ، وقرين الأحزان ، ونصب الآفات ، وصريع الشهوات ، وخليفة الأموات .

أما بعد ، فان فيما قد تبينت من ادبار الدنيا عنى ، وجنوح [٥٠] الدهر على ، واقبـال الآخرة على ، ما يزعنى [٥١] عن ذكر ما سواى ، والاهتمام بما ورائى ، غير أنى حين تفرد بى دون هموم النـاس هم

---

(٤٨) يقصد ملك الموت .

(٤٩) التنجيد : هو تزيين البيوت بالفرش والوسائد والبسط وانواع الزينة المختلفة .

(٥٠) جنوح الدهر : ميله على الانسان بمصائبه ودواهيه .

(٥١) ما يزعنى : يكفنى ويزجرنى .

نفسى ، فصدقنى رأيى ، وتصرف بى هواى ، وصرح الى محض أمرى ، فأقصى بى الى جد لا يزرى (٥٢) به لعب ، وصدق لايشوبه كذب .

وجدتك — أى بنى — من بعضى ، بل وجدتك من كلى ، حتى كان شيئا لو أصابك أصابنى ، وكأن الموت لو أتاك أتانى ، فعنانى (٥٣) من أمرك ما عنانى من نفسى ، فكتبت اليك كتابى هذا ان أنا بقيت أو فنيت .

وانى أوصيك يا بنى بتقوى الله ، ولزوم أمره ، وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله فهو أوثق السبب بينك وبينه .

يا نى أحيى قلبك بالموعظة ، وموته الزهد ، وقوه باليقين ، وذلله بذكر الموت ، واكسره بالفناء ، وبصره فجائع الدنيا ، وحذره صولة (٥٤) الدهر ، وفحش تقلب الأيام ، واعرض عليه أخبار الماضين ، وذكره ما أصاب من كان قبلك .

وسر فى ديارهم ، واعتبر بآثارهم ، وانظر ما فعلوا ، وعمن انتقلوا ، وأين حلوا ، فانك تجدهم انتقلوا عن الأحبة ، وحلوا دار الغربة ، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم ، فأصلح مثواك ، واحرز (٥٥) آخرتك ، ودع القول فيما لا ترف ، والدخول فيما لاتكلف ، وأمسك عن السير اذا خفت ضلالة ، فان الكف عند حيرة الضلالة خير من ركوب الأهوال .

---

(٥٢) لا يتهاون ويتناقص به لعب .

(٥٣) فعنانى من أمرك : فشق على وأهمنى .

(٥٤) صولة الدهر : سطوته وقهره .

(٥٥) احرز اخرتك : اجعلها متصدك دائما وضمها اليك واحفظها ولا تفرط فيها .

وأمر بالمعروف تكن من أهله ، وأنكر المنكر بيـدك ولسـانك ، وبائن (٥٦) من فعله بجهـدك ، وخفض الغمرات الى الحق ، وتفقه فى الدين ، وعود نفسك الصبر على المكروه ، وألجىء نفسك فى الأمور كلها الى الله ، فانك تلجئها الى كهف حريز (٥٧) ومانع عزيز .

وأخلص فى المسألة لربك ، فان بيـده العطاء والحرمان ، وأكثر الاستخارة ، وتفهم وصيتى لا تذهبن عنك صفحا (٥٨) .

أى بنى .. انى لمـا رأيتنى قـد بلغت سنا ، ورأيتنى ازددت وهنا ، بادرت وصيتى اياك خصالا منهن ان تعجل بى أجلى قبـل أن أقضى اليـك ماف نفسى ، وأنقص فى رأيى كمـا نقصت فى جسمى ، أو تسبقنى اليـك بعض غلبة الهوى وفتن الدنيـا ، فتكون كالصعب النفور (٥٩) .

وانما قلب الحدث (٦٠) كالأرض الخالية ، ما ألقى فيهـا من شىء قبلتـه ، فباكرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبـك ويشـغل لبـك (٦١) ، لتستقبل بجـد رأيك ما قـد كفاك تجربتـه ، فتكون قد كفيت مؤنة الطلب ، وعوفيت من علاج التجربة ، فأتاك من ذلك ما قـد كنا نأتيه، واستبان لك ما ربما أظلم علينا فيه .

أى بنى ، انى لم أكن عمرت عمر من كان قبلى ، فقـد نظرت فى أعمارهم ، وفكرت فى أخبارهم، وسرت فى آثارهم ، حتى عدت كأحدهم

---

(٥٦) أى فارق من فعل المنكر جهد طاقتك وبكل ما تملك من جهد .

(٥٧) أى محفوظ مصان منيع .

(٥٨) صفحا : جانبا . أى لا تدع وصيتى هذه تذهب عنك جانبا أو تبتعد عنك .

(٥٩) أى تنفر من نصيحتى فلا تقبلها .

(٦٠) الحدث : الشاب الحديث السن الصغير .

(٦١) لبك : عقلك .

بل كأنني لمـا قـد انتهى الى من أمورهم قـد عمرت مع أولهم الى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصت من كل أمر نحيلته (٦٢) ، وتوخيت لك جميله ، وصرفت عنك مجهوله .

ورأيت عنايتي بك واجبـة على ، فجمعت لك ما ان فهمته أدبك ، فاغتنم ذلك وأنت مقتبل بين النيـة واليقين ، فعليك بتعليم كتاب الله وتأويله ، وشرائع الاسـلام وأحكامه وحلاله وحرامه ، لا تجاوز ذلك قبله الى غيره .

فان أشفقت أن تلبسك شبهة لمـا اختلف فيه الناس من أهوائهم ورأيهم مثل الذى لبسهم ، فتقصد فى تعليم ذلك بلطف .

يا بنى ، وقـدم عنـايتك فى الأمر ليكون ذلك نظرا لدينـك لا ممارياً (٦٣) ولا مفاخرا ولا طالبا لعرض عاجلتـك ، فان الله يوفقـك لرشدك ، ويهديك لقصدك ، فاقبل عهدى اليك ، ووصيتى لك .

واعلم يا بنى أن أحب ما أنت آخـذ به من وصـيتى تقوى الله والاقتصـار على ما افترض الله علي ، والأخـذ بما مضى عليه أوائلك من آبائك ، والصـالحون من أهل بيتك ، فانهم لم يدعوا أن ينظروا لأنفسهم كما أنت ناظر ، وفكروا كمـا أنت مفكر ، ثم ردهم ذلك الى الأخذ بما عرفوا ، والامساك عما لم يكلفوا .

فان أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم ما علموا فيكون طلبك ذلك بتعليم وتفهم وتدبر ، لا بتوارد الشبهات وعلم الخصومات .

وابدأ قبـل نظرك فى ذلك بالاستعانة بالهك عليه ، والرغبة اليه ،

---

(٦٢) نحيلته : خلاصـته . وهى مأخوذة من النحل الذى يأخذ من كل الأزهار والرياحين ويعطى لنا خلاصة هذا كله فى شكل عسل .

(٦٣) الممارى هو المجادل فى الباطل بغية الجـدال والظهور لا طلبا للوصول للحق .

واحذر كل شـائبة أدخلت عليك شبهة ، وأسلمتك الى ضـلالة ، فاذا أيقنت أن قـد صفا قلـك فخشع ، وتم رأيك فاجتمع ، كان همـك فى ذلك هما واحدا ، فانظر فيما فسرت لك •

وان أنت لم يجتمع لـ ما تحب من فراغ نظرك فاعلم أنـك انمـا تخبط خبط عشواء ، وليس من طالب الدين من خبط ولا خلا ، والامساك عند ذلك أمثل •

وان أول ما أبدؤك به فى ذلك وآخره أنى أحمد الله الهى وإلهك ، اله الأولين والآخرين ، رب من فى السماوات ومن فى الأرضين بما هو أهله ، وكما هو أهله ، وكما يحب وينبغى له ، وأسـأله أن يصلى على نبيـنـا محمد ﷺ ، وأن يتم علينـا نعمه لـا وفقنـا من مسألتـه ، والاجابة لنـا ، فان بنعمته تتم الصالحات •

اعلم أى بنى أن أحدا لم ينبىء عن الله عز وجل كما نبـأ محمد ﷺ فارض به رائـدا ، فانى لم آلك نصـيحة ، ولم تبلغ فى ذلك ، وأنى اجتهدت مبلغى فى ذلك لعنـايتى وطول تجـربتى وان نظرى لك كنظرى لنفسى •

اعلم أن الله واحد أحـد صمد ، لا يضـاده فى ملكه أحد ، ولا يزول ولم يزل ، أول من قبل الأشـياء ، بلا أوليـة ، وآخر بلا نهاية ، حكيم عليم قديم ، لم يزل كذلك •

فاذا عـرفت ذلك فافعـل كما ينبغى لمثلك فى صغر خطره ، وقلة مقـدرته ، وكثرة عجزه ، وعظيم حاجتـك الى ربك ، فاستعن بالهـك فى طلب حاجتـك ، وتقرب اليه بطاعتـه ، وارغب اليـه بقـدرته ، وارهب منه لربوبيتـه ، فانه حكيم لم يأمرك الا بحسن ، ولم ينهـك الا عن قبيح •

اجعل نفسـك ميزانا بينـك وبين غيرك ، وأحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها ، ولا تظـلم كما لا تحب أن تظـلم ، وأحسن كما تحب أن يحسن اليك ، ولا تقل ما لا تعلم بل قل مما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك .

اعلم يا بنى أن الاعجاب ضد الصواب ، وآفة الألباب ، فاسع فى كدحك ، ولا تكن خازنا لغيرك ، فاذا هديت لقصدك فكن أخشع ما تكون لربك ، واعلم أن أمامك طريقا ذا مشقة بعيدة وأهوال شديدة ، وأنك لا غنى بك عن حسن الارتياد ، وقدر بلاغك من الزاد من خفة الظهر ، فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك ، فيكون ثقله وبالا عليك .

واذا وجدت من أهل الحاجة من يحمل لك زادك ، ويوافيـك به حيث تحتـاج اليه فاغتنمـه ، واغتنم ما أقرضـت من استقرضك فى حال غنـاك .

واعلم أن أمامك عقبـة كئودا (٦٤) ، مهبطها على جنة أو على نار، فارتد لنفسك قبل نزولك ، فليس بعد الموت مستعتب (٦٥) ، ولا الى الدنيا منصرف .

واعلم أن الذى بيده خزائن السماوات والأرض قـد أذن لك فى الدعاء ، وضمن الاجابة ، وأمرك أن تسأله فيعطيـك ، وتطلب اليـه فيرضـيك .

وهو رحيم لم يجعل بينـك وبينـه حجابا ، ولم يلجئك الى من تشفع به اليه ، ولم يمنعـك ان أسأت التوبة ، ولم يعاجلك بالنقمة ،

---

(٦٤) العقبة الكئود : الشاقة الثقيلة .

(٦٥) اى ليس بعد الموت من استرضاء ، فقد مضى زمان العمل وجاء زمان الحساب حيث لا رجعة للدنيا .

ولم يؤيسك من رحمته ، ولم يسد عليك باب التوبة ، وجعل توبتك النزوع عن الذنب ، وجعل سيئتك واحدة ، وجعل حسنتك عشرا .

واذا ناديته أجابك ، واذا ناجيته علم نجواك ، فأفضيت اليه بحاجتك ، وأبثثته ذات نفسك ، وشكوت اليه همومك ، واستعنته على أمورك ، وسألته من خزائن رحمته ، التى لا يقدر على اعطائها غيره ، من زيادة الأعمار ، وصحة الأبدان ، وسعة الرزق ، وتمام النعمة .

فالحح فى المسألة ، فبالدعاء تفتح أبواب الرحمة ، ولا يقطنك(٦٦) ابطاء اجابته ، فان العطية على قدر النية ، فربما أخرت الاجابة متطول مسألة السائل فيعظم أجره ويعطى سؤله ، وربما ذخر ذلك له فى الآخرة ، فيعطى أجر تعبده ، ولا يفعل بعبده الا ماهو خير له فى العاجلة والآجلة ، ولكن لا يحد لطفه أحد ، ولا يعرف دقائق تدبيره الا المصطفون .

ولتكن مسألتك لما يبقى ويدوم فى صلاح دنياك ، وتسهيل أمرك وشمول عافيتك ، فانه قريب مجيب .

اعلم أى بنى أنك خلقت للآخرة لا للدنيا ، وللفناء لا للبقاء ، وانك فى منزل قلعة ، ودار بلغة ، وطريق الآخرة ، وانك طريدة الموت الذى لا ينجو منه هاربه ، ولا يفوته طالبه ، فاحذر أن يدركك وأنت على حال سيئة ، وأعمال مردية (٦٧) ، فتقع فى ندامة الأبد ، وحسرة لا تنفد ، فتفقد دينك لنفسك ، فدينك لحمك ودمك ، ولا ينقذك غيره .

---

(٦٦) القنوط : اليأس .

(٦٧) مردية : مهلكة .

أى بنى ، أكثر ذكر الموت وذكر ما تهجم عليه ، ونفضى بعد الموت اليه ، واجعله نصب عينيه ، حتى يأتيك ، وقد أخذت له حذرك ، ولا يأتيك بغتة فيبهرك [٦٨] ، وأكثر ذكر الآخرة وكثرة نعيمها وحبورها [٦٩] وسرورها ودوامها وكثرة صنوف لذاتها ، وقلة آفاتها اذا سلمت .

وفكر فى ألوان عذابها وشدة غمومها ، وأصناف نكالها [٧٠] ان أنت تيقنت ، فان ذلك يزهدك فى الدنيا ، ويرغبك فى الآخرة ، ويصغر عندك زينة الدنيا ، وغرورها وزهرتها ، فقد نبأك الله عنها، وبين أمرها وكشف عن مساويها .

فاياك أن تغتر بما ترى من اخلاد [٧١] أهلها اليها ، وتكالبهم عليها ككلاب عاوية وسباع ضارية ، يهر [٧٢] بعضهم الى بعض ، عزيزها ذليلها ، وكثيرها قليلها ، قد أأضلت أهلها عن قصد السبيل ، وسلكت بهم طريق العمى ، وأخذت بأبصارهم عن منهج الصواب ، فتاهوا فى حيرتها ، وغرقوا فى فتنتها ، واتخذوها ربا [٧٣]، فلعبت بهم ولعبوا بها ونسوا ما وراءها ، فاياك يا بنى أن تكون مثل من قد شانته [٧٤] بكثرة عيوبها .

أى بنى ، انك ان تزهد فيما قد زهدتك فيه من أمر الدنيا ، وتعزض نفسك عنها ، فهى أهل ذلك ، فان كنت غير قابل نصحى اياك

---

(٦٨) فيقهرك ويغلبك .
(٦٩) الحبور : السرور .
(٧٠) النكال : العذاب .
(٧١) اخلاد أهلها : ركونهم الى الدنيا .
(٧٢) يهر : يكره بعضهم بعضا .
(٧٣) أصبحت الدنيا كل حياتهم ، حتى انهم اعتبروها مصدر الرى والهناء ، ومعلوم أن الرى هو سبب من أسباب استمرار الحياة .
(٧٤) شانته : تركت عيبا فيه ووصمته بالمعايب والمساوىء .

منهـا فاعلم يقينـا أنك لن تبلغ أملك ، وان تعـدو أجلك ، فانـك فى سبيل (٧٥) من قد كان قبلك ، فاجعل فى الطلب ، واعرف سبيل المكتسب، فانه رب طلب قـد جر الى حرب ، وليس كل طـالب يصيب ، ولا كل غائب يؤوب (٧٦) ، وأكرم نفسك عن كل دنية ، وان ساقتك •

اياك أن تعتـاض بما تبـذل من نفسك عوضا ، وقد جعلك الله به حرا ، وما منفعـة خير لا يدرك باليسـير ، ويسـير لا ينـال الا بالعسـير ، وايـاك أن توجف (٧٧) بك مطـايا الطمع ، فتـوردك مناهل (٧٨) الهلكة •

وان استطعت ألا تكون بينـك وبين الله ذو نعمة فافعل ، فانـك مدرك قسمك وآخـذ سهمك ، وان اليسير من الله أعظم وأكرم ، وان كان كل من الله ، ولله المثل الأعلى •

واعلم أن لك فى يسير مما تطلب فتنـال من الملوك افتخارا وبيع عرضـك ودينـك عليـك عار ، فاقتصـد فى أمرك تحمد معقبة عتلك، انك لست بائعـا شـيئا من عرضـك ودينـك الا بثمن ، والمغبون من حرم نصيبه من الله ، فخذ من الدنيـا ما أتاك ، وتول عما تولى عنك •

فان أنت لم تفعل فأجمل فى الطاب ، واياك ومقـاربة من يشينك، وتبـاعد من السلطان ، ولا تأمن خـدع الشـيطان ، ومتى ما رأيت منكرا من أمرك فأصلحه بحسن نظرك ، فان لكل وصـف صفة ، ولكل

---

(٧٥) اى انك سائر فى نفس الطريق الذى سار فيه من كان قبلك وهو طريق الرحيل عن الدنيا مهما طال عمرك ، فهذا طريق كل حى •

(٧٧) يؤوب : يعود ويرجع الى اهله واحبابه •

(٧٨) توجف : تسرع • الوجيف : السير السريع •

(٧٨) المناهل : الموارد التى يستقى ويشرب منها الماء •

قول حقيقـــة ، ولكل أمرا وجهـــا ، ينـــال الأريب [٧٩] فيه رشـــده ، ويهلك الأحمق بتعسفه فيه نفسه .

يا بنى .. كم قد رأيت من قيـــل له تحب أن تعطى الدنيـــا بما فيهـــا مائة سنة بلا آفة ولا أذى ، لا ترى فيهـــا سوءا ، ويكون آخر أمرك عـــذاب الأبد ، فلا يقنع بهـــا ولا يريدها ، ورأيته قد أهلك دينه ونفسه باليسير من زينـــة الدنيا ، وهذا من كيد الشيطان وحبائله [٨٠] فاحذر مكيدته وغروره .

يا بنى .. أملك عليـــك لسانك ، ولا تنطق فيما تخاف الضرر فيه، فان الصمت خير من الكلام فى غير منفعة ، وتلافيك ما فرط من همتـــك أيسر من ادراكك ما فات من منطقك .

واحفظ ما فى الوعاء بشد الوكاء [٨١] ، واعلم أن حفظ مافى يديك خير من طلب مافى يد غيرك ، وحسن التـــدبير مع الكفاف [٨٢] أكفى لك من الكثير فى الاسراف ، وحسن اليـــأس خـــير لك من الطلب الى النـــاس .

يا بنى .. لا تحـــدث عن غير ثقـــة فتكون كذابا ، والكذب داء فجانبه [٨٣] وأهله .

يا بنى .. العفة مع الشدة خير من الغنى مع الفجور ، من فكر أبصر ومن كثر خطؤه هجر ، رب مضيع ما يسره ، وساع فيما يضره ،

---

(٧٩) الأريب : العاقل .

(٨٠) حبائله : مصايده . مفردها حبالة .

(٨١) الوكاء : كل سير أو خيط يشد به فم السقاء او الوعاء .

(٨٢) الكفاف من القوت : الذى يكون على قدر حاجة الانسان ويغنيه عن سؤال الناس فلا يزيد عنه شىء ولا ينقص .

(٨٣) جانبه : ابتعد عنه وعن أهله .

من خير حظ المرء قرين صالح ، فقارن أهل الخير تكن منهم ، وبائن أهل الشر تبن منهم .

ولا يغلبن عليك سوء الظن ، فانك لن تدع بينك وبين خليلك صلحا ، قد يقال من الحزم سوء الظن .

بئس الطعام الحرام ، وظلم الضعيف أفحش الظلم ، الفاحشة تقصم القلب ، اذ كان الرفق خرقا [٨٤] كان الخرق رفقا ، وربما كان الداء دواء ، وربما نصح غير الناصح وغش المتنصح .

اياك والاتكال على المنى فانها بضائع النوكى [٨٥] ، ذك [٨٦] قلبك بالأدب كما تذكى النار الحطب ، ولا تكن كحاطب الليل وغثاء [٨٧] السيل .

كفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم ، والعقل حفظ التجارب ، وخير ما جربت ما وعظك ، ومن الكرم لين الشيم [٨٨] ، بادر الفرصة قبل أن تكون غصة ، ومن الحزم العزم [٨٩] ، ومن سبب الحرمان التوانى ، ومن الفساد اضاعة الزاد ومفسدة المعاد .

لكل أمر عاقبة ، فرب مشير بما يضر ، لا خير فى معين مهين ، ولا فى صديق ظنين [٩٠] ، لا تدع الطلب فيما يحل ويطيب فلابد من بلغة [٩١] ، وسيأتيك ما قدر لك .

---

(٨٤) الخرق : الحمق والجهل .
(٨٥) النوكى : الحمقى . والأنوك : الأحمق .
(٨٦) ذك قلبك : اى اشعله واجعله متقدا بالأدب .
(٨٧) الغثاء : ما يحمله السيل ويسوقه أمامه من الزبد والوسخ وغيره .
(٨٨) الشيم : الصفات .
(٨٩) العزم : الاشتداد فى أخذ تعاليم الله بالحزم والعزم الأكيدين .
(٩٠) ظنين : كثير الظن فى الناس .
(٩١) البلغة : ما يتبلغ به من العيش بدون زيادة على الحاجة .

التاجر مخاطر ، من حام ساد ، ومن تفهم ازداد ، ولقاء أهل الخير عمارة القلوب ، ساهل ما ذل لك بقوة .

واياك أن تطمح بك مطية اللجاج ، وان قارفت سيئة فعجل محوها بالتوبة ، ولا تخن من ائتمنك وان خانك ، ولا تذع سرك وان أذاع سرك .

خذ بالفضل ، وأحسن البذل ، وأحبب للناس الخير ، فان هذه من الأخلاق الرفيعة ، وانك قلما تسلم ممن تسرعت اليه ، وكثيرا مايحمد من تفضلت عليه .

اعلم أى بنى أن من الكرم الوفاء بالذمم والدفع عن الحرم ، والصدود آية المقت (٩٢) ، وكثرة العال آية البخل ، وبعض الامساك عن أخيك مع الالف خير من البذل مع الجنف (٩٣) ، ومن الكرم صلة الرحم ، والتحرم وجه القطيعة .

احمل نفسك من أخيك عند جموحه على البذل ، وعند تباعده على الدنو ، وعند شدته على اللين ، وعند تحرمه على الاعتذار ، حتى كأنك له عبد ، وكأنه ذو نعمة عليك .

ولا تضع ذلك فى غير موضعه ، ولا تفعله بغير أهله ، ولا تتخذ من عدو صديقك صديقا ، فتعادى صديقك ، ولا تعمل بالخديعة فانها أخلاق اللئام ، وامحض (٩٤) أخاك النصيحة — حسنة كانت أم قبيحة — وساعده على كل حال ، وزل معه حيث زال ، ولا تطلبن منه المجازاة فانها من شيم الدناءة ، وخذ على عدوك بالفضل ، فانه أحرى للظفر .

---

(٩٢) المقت : المكره .

(٩٣) الجنف : الميل عن الحق والظلم .

(٩٤) امحض أخاك النصيحة : أخلص له النصيحة .

لا تصرم [٩٥] أخاك على ارتيـاب ، ولا تقطعه دون استعتاب ، وان من غالظك فانه يوشـك أن يلين ، ما أقبح القطيعـة بعد الصلة ، والجفـاء بعد اللطف ، والعـداوة بعد المودة ، والخيانة لمن ائتمنك ، وخلف الظن لمن ارتجاك ، والغرر بمن وثق بك .

وان أردت قطيعـة أخيك فاستبق له من نفسك بقية ، ومن ظن بك خيرا فصـدق ظنه ، ولا تضيعن بر أخيك اتكالا على ما بينك وبينه، فانه ليس لك بأخ من أضعت حقه .

لا يكون أهلك أشقى النـاس بك ، ولا ترغبن فيمن زهد فيك ، ولا تزهدن فيمن رغب اليك ، اذا كان للخلط موضـعا لا يكونن أخوك أقوى على قطيعتـك منك على صلتـه ، لا يكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان اليـه ، ولا على البخل أقوى منك على البذل ، ولا على التقصير أقوى منك على الفضل .

لا يكثرن عليـك ظلم من ظلمـك ، فانه يسعى فى مضرته ونفعك، وليس جزاء من سرك أن تسوءه .

اعلم أى بنى أن الرزق رزقان ، رزق تطلبـه ورزق يطلبك ، فان لم تأته أتاك ، واعلم أن الدهـر ذو صروف ، فـلا تكونن ممن يسبك لاعنة للدهر ومحفلا عند الناس عذره .

ما أقبح الخضـوع عند الحاجة ، والجفـاء عند الغنى ، انمـا لك من دنيـاك ما أصلحت به مثواك ، فأنفـق بيسرك ، ولا تكن خازنا لغيرك ، فان كنت جازعا مما تفلت من يديك فاجزع على ما لا يصـل اليـك .

---

(٩٥) لا تصرم اخاك : اى لا تقطع علاقتك به ومودتك له لمجرد الشك والظن .

استدل على ما لم يكن بما قد كان ، فان الأمور أشباه يشبه بعضها بعضا ، ولا تكفرن ذا نعمة فان كفر النعمة من قلة الشكر ولؤم الخلق ، وأقلل العذر ، ولا تكونن ممن لا تنفعه العظلة الا اذا بلغت فى الملامة ، فان العاقل يتعظ بالقليل ، والبهائم لا تنفع الا بالضرب .

واتعظ بغيرك ، ولا يكونن غيرك متعظا بك ، واحتذ بحذاء (٩٦) الصالحين ، واقتد بآدابهم ، وسر بسيرتهم ، واعرف الحق لمن عرفه لك رفيعا كان أو وضيعا ، واطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر .

من ترك القصد جار ، نعم حظ المرء القناعة ، شر ما أشعر قلب المرء الحسد ، فى القنوط التفريط ، وفى الخوف من العواقب البغى ، الحسد لا يجاب الا مضرة وغيظا يوهن قلبك ويمرض جسمك ، فاصرف عنك الحسد تغنم ، وأنق صدرك من الغل تسلم .

وارج من بيده خزائن الأرض والأقوات والسماوات ، وسله طيب المكاسب تجده منك قريبا ولك مجيبا ، الشح يجلب الملامة ، والصاحب الصالح مناسب ، والصديق من صدق غيبه ، والهوى شريك العمى ، ومن التوفيق سعة الرزق .

نعم طارد الهموم اليقين ، وفى الصدق النجاة ، عاقبة الكذب شر عاقبة ، رب بعيد أقرب من قريب ، وقريب أبعد من بعيد ، والغريب من لم يكن له حبيب ، من تعدى الحق ضاق مذهبه ، من اقتصر على قدره كان أبقى له ، ونعم الخلق وأوثق العرى التقوى ، من أعتبك (٩٧) قد هوى ، وقد يكون اليأس دراكا اذا كان الطمع هلاكا .

---

(٩٦) أى اقتد بهدى وعمل الصالحين .

(٩٧) أعتبك : رجع الى ما أرضاك عنه بعد ان ترك ما كنت تأخذه عليه واستخطك عليه .

كم من مريب قد شقى به غيره ونجا هو من البلاء ، جانيك من يجنى عليك ، وقد تعدى الصحاح مبارك [٩٨] الجرب ، وليس كل عورة تظهر ، ربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رشده ، ليس كل من طلب وجد ، ولا كل من توقى نجا •

أخر الشىء فانك اذا شئت عجلته ، أحسن ان أحببت أن يحسن اليك احتمل أخاك على كل ما فيه ، ولا تكثر العتاب فانه يورث الضغينة ويجر الى المغضبة ، وكثرته من سوء الأدب ، استعتب من رجوت صلاحه •

قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل ، من كابد الحزبة [٩٩] عطب ، ومن لم يعرف زمانه حرب [١٠٠] ، ما أقرب النقمة من أهل البغى • وأخلق [١٠١] من غدر أن لا يوف له ، زلة العالم أقبح زلة ، وعلة الكذاب أقبح علة •

الفساد يبين الكثير ، والاقتصاد يثمر القليل ، والقلة ذلة ، وبر الوالدين أكرم الطبائع ، والخوف شر لحاف ، والزلل مع العجلة ، لا خير فى لذة تعقب ندامة •

العاقل من وعظته التجربة ، ورسولك ترجمان عقلك ، وكتابك أحسن ناطق عنك ، فتدبر أمرك وتقصر شرك •

الهدى يجلو العمل ، وليس مع اختلاف ائتلاف ، ومن حسن العمل

---

(٩٨) الصحاح : هى الابل السليمة الصحيحة التى لم تصب بالجرب ، والمبارك هى مواضع بروك الابل . والجرب : هى الابل التى قد اصيبت بالجرب .

(٩٩) الحزبة : العصبة المجتمعة .

(١٠٠) حرب : سلب ونهب .

(١٠١) اى احرى به واجدر .

افتقـاد (١٠٢) حال الجـار ، لن يهلك من اقتصد ، سر المرء دخيله ، ورب باحث عن حتفه ، وليس كل من ينظر بصيرا •

رب هزل صـار جدا ، من ائتمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه أهانه ، ومن لجأ اليـه أسلمه ، ليس كل من رمى أصـاب ، واذا تغير السلطان تغير الزمان ، وخير أهلك من كفاك ، المزاح يورث العـداوة ، والحقد أعذر من اجترأ وربما أكدى الحق •

رأس الدين صحة اليقين ، وتمـام الاخلاص تجنب المعـاصي ، وخير القول الصـدق ، والسلامة مع الاستقامة ، سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار •

كن من الدنيـا على بلغـة (١٠٣) ، أحمل لمن دل عليـك ، واقبل عذر من اعتـذر اليك ، وارحم أخاك وان عصـاك ، وصله وان جفاك ، وعود نفسك السماح ، وتخير لها من كل حال أحسنه •

لا تتكلم بما يرديك ولا ما كثيره يزريك (١٠٤) ، أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك •

أى بني ، اياك ومشاورة النساء الا ما جربت بكمال ، فان رأيهن يجر الى من ، وعزمهن الى وهن ، أكفف عليهن من أبصارهن بحجابك اياهن ، فان شـدة الحجاب خير لهن من الارتيـاب ، وليس خروجهن بأشـد عليـك من دخول من لا تثـق به عليهن ، فان اسـتطعت أن لا يرفهن غيرك فافعل •

أقلل الغضب ، ولا تكثر العتـاب فى غير ذنب ، فان المرأة ريحانة

---

(١٠٢) أى يتعرف أحوال جاره وليعينه ويقوم بأمره .

(١٠٣) هى ما يتبلغ الانسان به فى حياته فلا يزيد من حاجته شيء .

(١٠٤) يزريك : اى يجعلك محتقرا بين الناس فيتهاونون بشأنك .

وليست بقهرمانة [١٠٥] ، وأحسن لماليكك الأدب ، وان أجرم أحد منهم جرما فأحسن العفو ، فان العفو مع العز أشـد من الضرب لمن كان له قلب ، وخف القصاص ، واجعل لكل امرئ منهم عملا تأخذه به ، فانه أحرى أن لا يتواكلوا .

وأكرم عشيرتك فانهم جناحك الذى به تطير ، وأصلك الذى اليه تصير ، فانك بهم تصـول وبهم تطول ، وهم العمدة [١٠٦] عند الشدة ، أكرم كريمهم ، وعد [١٠٧] سقيمهم ، وأشركهم فى أمورهم ، ويسر عن معسرهم ، واستعن بالله على أمرك كله ، فانه أكرم معين .

استودع الله دينك ودنياك والسلام .

***

من خطب أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضى الله عنـه

١ — خطب عمر بن الخطاب اذ ولى الخلافة ، فصـعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أيها النـاس ، انى داع فأمنوا : اللهم انى غليظ فلينى لأهل طاعتك بموافقة الحق ، ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على أعـدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا

---

(١٠٥) القهرمانة : القهرمانة فى اللغة هو الحافظ الوكيل لما تحت يديه من أموال وغيره والقائم بأمور الرجل ، والمقصود ان المرأة ليست هكذا ، وانما هى تحتاج لمن يقوم بأمرها .

(١٠٦) العمدة : ما يعتمد عليه ، فعشيرة الانسان وقومه هم الذين يعتمد عليهم عندما تنزل به الشدائد والمصائب وتلم به الفواجع .

(١٠٧) أى زر من يمرض منهم .

اعتداء عليهم ، اللهم انى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصدا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة ، واجعلنى ابتغى بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين ، اللهم انى كثير الغفلة والنسيان فالهمنى ذكرك على كل حال ، وذكر الموت فى كل حين .

اللهم انى ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها ، والقوة عليها بالنية الحسنة التى لا تكون الا بعزتك وتوفيقك . اللهم ثبتنى باليقين ، والبر ، والتقوى ، وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى ، والمحاسبة لنفسى ، وصلاح النيات ، والحذر من الشبهات .. اللهم ارزقنى التفكر ، والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهم له ، والمعرفة بمانيه ، والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ، انك على كل شىء قدير .

٢ — عن سعيد بن المسيب قال : لما ولى عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أيها الناس ، انى علمت أنكم كنتم تؤنسون منى شدة وغلظة ، وذلك أنى كنت مع رسول الله ﷺ ، وكنت عبده وخادمه ، وكان كما قال الله تعالى : ((**بالمؤمنين رءوف رحيم**)) فكنت بين يديه كالسيف المسلول الا أن يغمدنى أو ينهانى عن أمر فأكف ، والا أقدمت على الناس لمكان لينه ، فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد ، ثم قمت ذلك المقام مع أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ بعده ، وكان كما قد علمتم فى كرمه ودعته ولينه ، فكنت خادمه كالسيف بين يديه أخلط شدتى بلينه الا أن يتقدم الى فأكف ، والا أقدمت ، فلم أزل على ذلك حتى توفاه الله ، وهو عنى راض ، والحمد لله على

ذلك كثيرا وأنا به أسعد ... ثم صار أمركم الى اليوم ، وأنا أعلم، فسيقول قائل : كان يشتد علينا والأمر الى غيره فكيف به اذ صار اليه ؟! واعلموا أنكم لا تسألون عنى أحدا ، قد عرفتمونى وجربتمونى وعرفتم من سنة نبيكم ماعرفت وما أصبحت نادما على شيء أكون أحب أن أسأل رسول الله ﷺ الا وقد سألته ... فاعلموا أن شدتى التى كنتم ترون ازدادت أضعافا اذ صار الأمر الى على الظالم ، والمتعدى ، والأخذ للمسلمين اضعيفهم من قويهم، وانى بعد شدتى تلك واضع خدى بالأرض لأهل العفاف والكف منكم والتسليم ، وانى لا آبى — ان كان بينى وبين أحد منكم .

٣ — أوصى عمر رضى الله عنه ، الخليفة من بعده فقال :

« أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا : أن تعرف لهم سابقتهم وأوصيك بالأنصار خيرا ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم وأوصيك بأهل الأمصار خيرا ، فانهم ردء (الاسلام) ، وجباة الأموال والفيىء ، لا تحمل فيئهم الا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فانهم أصل العرب، ومادة الاسلام : أن تأخذ من حواشى أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم ، وأوصيك بأهل الذمة خيرا : أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، اذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا ، أو عن يد ، وهم صاغرون ، وأوصيك بتقوى الله ، وشدة الحذر منه ، ومخافة مقته أن يطلع منك على ريبة ، وأوصيك أن تخشى الله فى الناس ، ولا تخشى الناس فى الله ، وأوصيك بالعدل فى الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم فان ذلك — باذن الله — سلامة لقلبك ، وحط لوزرك ، وخير فى عاقبة أمرك ، حتى تقضى من ذلك الى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك .

وآمرك أن تشتد فى أمر الله ، وفى حدوده ومعاصيه على قريب الناس

وبغيدهم ، ثم لا تأخذك فى أحــد الرأفة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حرمه •

واجعل النــاس سواء عندك لا تبــالى على من وجب الحق ولا تأخــذك فى الله لومة لائم ، واياك والأثرة ، والمحاماة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين ، فتجور وتظلم وتحرك نفسك من ذلك ماقد وسعه الله عليك •

وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيــا والآخــرة ، فان اقترفت لدنياك عدلا وعفة عما بسط الله لك اقترفت ايمانا ورضوانا ، وان غلبك عليه الهوى ، ومالت بك شهوة اقترفت به سخط الله ، ومعاصيه •

وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك فى ظلم أهل الذمة وقــد أوصيتك وحضضتك ونصحت لك ابتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة• واخترت من دلالتك ماكنت دالا عليــه نفسى وولدى فان عمات بالذى وعظتك ، وانتهيت الى الذى أمرتك أخــذت به نصيبا وافرا ، وان لم تقبل ذلك ، ولم يهمك ، ولم تنزل معــاظم الأمور عنــد الذى يرضى الله به عنــك يكن ذلك بك انتقاصــا ، ورأيــك فيــه مدخولا ، لأن الأهواء مشتركة ، ورأس كل خطيئــة والداعى الى كل هلكة ابليس ، وقــد أضل القرون السالفــة قبلك ، فأوردهم النــار ، وبئس الورد المورود ولبئس الثمن أن يكون حظ امرئ موالاة لعــدو الله والداعى الى معاصــيه !!

ثم اركب الحق وخض اليه الغمرات وكن واعظا لنفسك •

وأنشــدك الله لمــا ترحمت على جماعة المسلمين فأجللت كبيرهم ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم ، ولا تضربهم فيذلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفيىء فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم،

ولا تجمرهم فى البعوث فتقطع نسلهم ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم ، فيأكل قويهم ضعيفهم .

هذه وصيتى اياك ، وأشهد الله عليك ، وأقرأ عليك السلام » .

* * *

٤ — كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنهما ، ومن معه من الأجنـــاد :

أما بعد فانى آمرك ومن معك من الأجنـــاد بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضـــل العدة على العدو ، وأقوى المكيـــدة فى الحرب .

وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عـــدوكم فان ذنوب الجيش أخـــوف عليهم من عدوهم ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنـــا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنـــا كعدتهم ، فان استوينا فى المعصـــية كان لهم الفضل علينـــا فى القوة ، والا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنـــا .

واعلموا أن عليكم فى مسيرتكم حفظة من الله يعلمون ماتفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا : ان عدونا شر منا ، فلن يسلط علينـــا وان أسأنا ! فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى اسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس : « **فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا** » .

واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكم .

وترفق بالمسلمين فى مسيرهم ولا تجشمهم مسـيرا يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم ، والسفر لم ينقص قوتهم ، فانهم سائرون الى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع [١] ، وأقم بمن معك فى كل جمعـة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيهـا أنفسهم ، ويرمون أسلحتهم [٢] وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصـحابك الا من تثق بدينـه ، ولا يرزأ [٣] أحدا من أهلها شيئا فان لهم حرمة وذمة ، ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح [٤] ، واذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم [٥] ولا يخف عليـك أمرهم ، وليكن عنـدك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن الى نصحه وصدقه ، فان الكذوب لاينفعك خبره ، وان صـدقك فى بعضه ، والغاش عين عليـك ، وليس عينـا لك ، وليكن منك عنـد دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا [٦] بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم وموقفهم ، وتتبع الطلائع [٧] عوراتهم ، وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فان لقوا عدوا كان أول ماتلقـاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا الى أهل الجهـاد والصـبر على الجلاد ، لا تخص بهـا أحـدا بهوى ، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعثن طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف غليها فيـه

---

(١) الكراع : الخيل والسلاح .

(٢) اى يصلحون ما فسد منها .

(٣) يرزأ : ينقص أو يأخذ منه شيئا .

(٤) أى لا تطلبوا النصر على اعدائكم بظلم اهل الصلح .

(٥) أذاك العيون : أى ارسل اليهم من يتلقط أخبارهم ويعرف أسرارهم .

(٦) السرايا جمع سرية : والسرية قطعة من الجيش ما بين خمسـة أنفس الى ثلاثمائة .

(٧) الطلائع : جمع طليعة والطليعة : مقدمة الجيش ومن يبعث قدامه ليطلع على أسرار العدو .

غلبة أو ضيعة ونكاية ، فاذا عاينت العدو فاضمم اليك قاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع اليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة [٨] مالم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتلة [٩] ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعة بك ، ثم أذك أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات [١٠] ولا تؤتى بأسير ليس له عقد [١١] الا ضربت عنقه لترهب بذلك عدو الله وعدوك ، والله ولى أمرك ، ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان » .

***

٥ — كتب عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، الى أبى موسى الأشعرى — رواها ابن عيينة :

« أما بعد فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا أدلى اليك الخصم ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس [١٢] بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك [١٣] ولا يخاف ضعيف من جورك .. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فان الحق قديم (لا يبطله شىء)

---

(٨) المناجزة : القتال والنزال .

(٩) المقاتل : جمع مقتل وهو الموضع الذى اذا اصيب فيه الانسان أو الحيوان لا يكاد يسلم .

(١٠) البيات : الايقاع بالعدو ليلا بغتة .

(١١) عقد : عهد .

(١٢) آس : سو بين الناس .

(١٣) الحيف : الظلم .

والرجوع اليه خير من التمادى على البـاطل ، الفهم فيما يتلجلج [١٤] فى صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ واعرف الأمثال والأشباه وقس الامور عنـد ذلك ، ثم اعمد الى أحبهـا عنـد الله ورسوله وأشبهها بالحق ، واجعل (لمن ادعى حقا غائبـا أمدا ينتهى اليـه) فان أحضر بينـة أخذت له بحقه ، والا وجهت عليه القضاء ، فان ذلك أجلى للعمى ، وأبلغ فى العذر .

والمسلمون عدول [١٥] بعضهم على بعض الامجلودا فى حـد أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا [١٦] فى ولاء أو قرابة ، أو نسب ، فان الله ، عز وجل ، ولى منكم السرائر ، ودرأ [١٧] عنكم بالبينـات والأيمان .

ثم اياك والتأذى بالنـاس والتنكر للخصوم فى مواطن الحقوق التى يوجب الله عز وجل بها الأجر ، ويحسـن بهـا الذخر ، فانه من تخلص نيتـه فيما بينه وبين الله ، ولو على نفسه يكفيه الله مابينـه وبين الناس ، ومن تزين للنـاس بما يعلم الله خلافه منه هتـك الله ستره » .

وقال رضى الله عنه :

« تعلموا العلم وعلموه النـاس وتعلموا له الوقـار والسكينة وتواضعوا لمن تعلمتم منه العلم ، وتواضعوا لمن عمتموه العـلم ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم » .

---

(١٤) اى يتردد فى صدرك ويقلق ولم يستقر .

(١٥) عدول : جمع عدل وهو المرضى الحكم أو الشهادة .

(١٦) الظنين : المتهم وكل ما لا يوثق به .

(١٧) درأ : دفع .

وقال رضى الله عنه :

« كونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم وسلوا الله رزق يوم بيوم ولا يضركم أن لا يكثر لكم » .

فهرست الكتاب

الموضـــــوع الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٢/٨٩٣١

الرقم الدولى

I.S.B.N.

977 — 00 — 4293 — 5

مطـــابع الدار البيضـــاء

الحاج احمد سعد الأبيض وابناؤه

١٨ شارع مستشفى الدمرداش بالعباسية ت ٢٨٢٥٠٤٦

مطـابع الدار البيضـاء

(مركز جمـع آلى)

الحاج أحمد سعد الأبيض وأبنائه

القاهرة ـ العباسية ١٨ ش مستشفى الدمرداش ت ٢٨٢٥٠٤٦